المـــادة بين الأزليـــة والحـــدوث

بقـــلم

الشيخ محمد حسن آل ياسـين

مطبعة اوفسيت المينـاء ـ بغـداد

الطبعة الاولى ـ بغــداد /١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م

الطبعة الثانية ـ بيروت /١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م

الطبعة الثالثة ـ بغــداد /١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م

وافقت على طبعه مديرية رقابة المطبوعات

بكتابها المرقم ٥٨ والمؤرخ ١٩٧٧/١/١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين .

* * *

دأب الانسان منذ احتضنه سطح هذا الكوكب على التأمل في كل ما يحيط به من عوالم الخلق والابداع ، وما يقع عليه بصره من مشاهد التصميم المدهش العجيب ... في الارض وفي السماوات ... في عالم الاحياء وفي عالم الجمادات .

كيف وجِد كُلّ ذلك ؟

هل حدث صدفة أم عن قصد وتصميم ؟

وهل من المعقول أن يخضع وجود العالم بأجمعه وبكل من فيه ومافيه الى الصدفة العمياء ؟! .

واذا كان عن قصد وتصميم فمـن هو هـذا المصمم القـادر على ذلك كلـه ؟

هل هو جسم مادي أم شيء فوق المادة ؟

وهل يمكن للمادةأن تصنع نفسها بنفسها ، وبدون حاجة الي أي تدخل خارجي في ذلك ؟!

وهل .. وهـل ...

وهكذا يستمر التساؤل في ذهن الانسـان ويسـتمر ، ثـم يزداد هذا الانسـان ، بازدياد تطوره العقـلي على مـر العصـور ؛ تساؤلا وتطلعا نحو معرفـة هـذا السر العظيم وحل هـذا اللغـز المغلـق .

وتوالت الاجوبـة على هذه الاسئلة جيلا بعد جيـل .

أجابـت الفطـرة ...

واجـاب الدين ...

واجابت الفلسفة ...

ومع ذلك كله فما زال الانسان يتطلع الى المزيد ، لانه لـم يملأ ـ بعد ـ فراغ فكره ولم يشبع نهم تطلعه .

وما فتيء يتسـاءل ويتسـاءل : من هو الموجد ؟ وما الدليل عليـه ؟

ولسنا في هذا الكتاب بصدد الدخول في التفاصيل كلهـا ، فقد أودعنا الكثير منهـا في كتابنا « الله بين الفطرة والدليـل » فلا نكـرر ولا نعيـد .

ولكن الذي استوقفنا هنا ـ فرأينا ضرورة البحث فيـه ـ جواب معين تبنتـه احدى الفلسفات المعاصرة لتحـل به هـذه المعضلـة ، فتنهي الحديث فيها من الجـذر ، وتغلق ابـواب التساؤلات الدائرة الحائرة غلقا محكما لاتحتاج بعـده ـ في زعمهـا ـ الى اعادة نظـر او تكرار كـلام .

وخلاصة ذلك الجواب : ان المادة قد وجدت دائما ومنـذ الازل ، ولذلك فهي سبب الاسباب وعلة العلل والموجـد الاول للاشياء !

أما انها كيف وجدت ؟ ومن أوجدها ؟ وكيف تحركت ؟ ومن أودع فيها قابليـة الحركة ؟ ومن طورها ؟ وكيف وضـع لكل شيء نظامه وقانونه ؟ فذلك باجمعه مرفوض من قبل العلم ، لانه يجـر بطبيعتـه الى الايمان بالغيب .

وليس من شيء يكرهه العلم المادي ويحاربه اشـد الحـرب مثـل «الايمان بالغيب» !؟

* * *

وما أدري هـل يسمـح لنا هؤلاء «العلماء» ! أن نتساءل ـ ونحن في أول الحديث ـ عن سبب فرارهم العجيب مـن كلمـة «غيب» وعـن مبررات عـدائهم العنيف لمسألة «اللجـوء الـى عالم الغيبيات» .

الأن حروف كلمة «غيب» غير متناسقة مثلا ؟

أم لان فيها « وقعا » مزعجا تنفر منه الاسماع الشفافة المرهفة ؟

أم ان هناك سرا دفينا لم يحاولوا الافصاح عنه حتى اليوم !!

وهل يجد المفكر المحايد فرقا بين الايمان بـ «الغيب» المنتمي الى الله تعالى و «الغيب» المنتمي الى «افتراض» ازلية الماده ؟

ولماذا يجب الاخذ بالثاني ـ بلا برهان طبعا ـ دون الاول ؟ وكيف ؟

لعل هناك من يتطوع للاجابة على هذه التساؤلات فيقول :

ان العلم المادي انما رفض الاعتراف بالغيب لان ميدانه هو المحسوس الملموس الخاضع للنظر والتجربة ، يبدأ به وينتهي اليه ، ولا شيء غير ذلك .

ونحن نقول : ذلك ادعاء غير صحيح . فماهيات الاشياء لم يعرفها العلم الحسي ولن يعرفها مهما مر الزمان .

ان العلم يلاحظ ويدون الملاحظات : يلاحظ ـ مثلا ـ ان صعود الجبل أشق من النزول منه ، وان رفع حجر على الظهر أصعب من رفع عصا ، وان التفاحة تقع من شجرتها على الارض ، وان القمر يدور معلقا في السماء .

وهي ملاحظات لاتبدو بينها أية علاقة بالنظرة الساذجة .

ولكن نيوتن حينما طلع على العالم بجاذبيته ، ارتبطت هذه الملاحظات بتلاحم كامل لتصبح شواهد دالة على هذه الجاذبية . انها نظرية فسرت لنا الواقع .

ومع ذلك ، فهذه الجاذبية «غيب» لايعرف كنهها أحد .

والالكترون ...

والـذرة ...

والموجـة اللاسلكيـة ...

لم نر منهـا شيئا ، ومع ذلك فنحن نؤمن بوجودها اكتفاء بآثارهـا ، ونقيم لها المعامل والمختبرات والدراسات المتخصصة ، في حين انها بالنسبة الى حواسنا غيب في غيب .

ولو رجع القاريء الى بحث الاساتذة السوفييت الموسع في النظرية الفلسفية عن العالم لرأى كيف يتحـدث هؤلاء حديثـا مسهبا عن وجوب اللجـوء الى « معونـة التفكير التجريـدي او المعرفه المنطقيه» ، وعن الفيزياء التي « تستعمل مفاهيم السـرعة والكتلـة وكميه الحـركة والطاقـة وغيرها وكـل هذه المفاهيـم تجريدات علميه ، فلن تجد في الطبيعة سـرعة ولا طـاقة ولا كتلة بشكل صرف » ؛ وعن هذا التجريد الذي « يسـمح بفهم الواقـع فهما أعمق .. للمواد المفردة نتمكن من معرفة أساسهـا العميق / جوهرهـا ...»(١) .

مما لاحاجـة الى نقلـه بالتفصيـل .

وهكذا يتجلى ان حـدود العلم التجريبي مقتصرة علـى التعرف بالعلاقـات والمقاديـر ، وان هذا العلـم لا يستطيـع ان يرى «جوهـر» أي شـيء أو «ماهيتـه» أو «كنهـه» بالمعنـى الفلسفي للجوهر والكنه والماهية .

انه دائما يتعرف على الأشياء من ظواهرها ويتحسسهـا مـن خارجها ، ومع ذلك فهو يحتضن بنظرياتـه كل الماهيات ويفتـرض لهـا ما شـاء من فـروض .

---

(١) الناس والعلـم والمجتمع : ٣٥ ـ ٣٦ .

اذن . فنحن اليوم في عصر العلم الغيبي والضرب في عالم الاحتمالات ، وليس للعلم ـ والحال هذه ـ ان يحتج على الغيبيات بعد أن غرق فيها الى اذنيه(١) .

ويجب ان لايفوتنا ونحن نسجل على العلم جهله بالماهيات ـ وان كنا نعترف له بالتقدم العظيم في معرفة الظواهر ـ أن نشير الى جانب رئيس ومهم في هذا الموضوع لابد للقارئ من أن يكون على المام كامل به قبل الدخول في صلب البحث فنقول :

قد يتصور متصور ان هناك اسلوبا للاستدلال في الفكر الديني هو غير الأسلوب الذي يسلكه البحث العلمي في عملية البرهنة على صحة النتائج التي يتم التوصل اليها في سائر حقول المعرفة العلمية المعاصرة .

وقد يزعم زاعم : «ان الطريقة العلمية في الوصول الى معارفنا وقناعاتنا عن طبيعة الكون ونشأته وعن الانسان

---

(١) من أطرف ماقرأت في ضمن مخطط الحملة على الغيب مقال منشور في جريدة الجمهورية العراقية في عددها الصادر يوم ١٩٧٣/١١/٧م في تأبين الدكتور طه حسين يقول فيه كاتبه ما نصه : «ستراتيجية طه حسين اعتمدت على نزع الغيبيات والاوهام من تاريخ الادب» . وبودي لو شرح الكاتب في بحث او مقال اخر ماذا يعني بـ«غيبيات الادب» و بـ«الاوهام» المعطوفة على الغيبيات وبطريقة نزعها التي أثارت اعجابه !

وتاريخه تتنافى تماما مع المنهج الاتباعي السائد في الدين»(١) .

وقد يخرج علينا «خارج» من بين الراكضين وراء المودة فيذهب الى التأكيد على التناقض بين العلم والدين «ذلك التناقض الذي يتضح من كونهما ـ اى العلم والدين ـ نمطين مختلفين من انماط التفكير . فلكل منهما طريقته المستقلة في النظر الى الظواهر وفي تحديد طبيعتها وفي طريقة بحثها وفي مقياس التحقق من صحة النتائج التي يتوصل اليها»(٢) .

وقد يحاول هذا «الخارجي» ان يؤكد ذلك الزعم بتوضيح اكثر فيقول :

ان «الطريقة العلمية تنظر الى كافة الظواهر في الوجود على انها ذات وجود واقعي يتحقق في الواقع ، وان لها قوانينها واسبابها وخواصها المستقلة الواقعية ... واما طريقة التفكير التي يتميز بها الفكر الديني بمختلف انماطه ومراحله انما تنظر الى ظواهر الواقع الموضوعي على أنها نتيجة لظواهر اخرى ذات طبيعة مغايرة تعلو على التحقق التجريبي ... لانها تتجاوز حدود ادراك العقل البشري»(٣) .

فهل هذا صحيح ؟

في الواقع ، ان المنهج او الخط العام لايمان المتدين بالله تعالى لايختلف مطلقا عن المنهج أو الخط العام الذي يسير عليه الحسيون في ايمانهم بالحقائق العلمية .

فالعالم الطبيعي عندما يقف على ظاهرة من الظواهر

---

(١) نقد الفكر الديني : ٢٢

(٢) نقد الفهم العصري للقرآن : ٦ـ٧ .

(٣) المصدر السابق : ٧ .

الخارجيـــة يسارع الي دراســتها وسبــر غورها بدقة وامعان ، فيستنبط من ذلك ـ بما لديه من أدوات العلم والعقل والتأمـل ـ قاعدة عامة تشمل سائر المفردات المتشاكلة مع تلك الظاهــرة ، وتكون هذه القاعــدة العامة قائمــة على دعامتيــن :

— **الاولى ـ الحس أو الاثر الخارجي ، أي الظاهرة المدروسة .**

— **الثانية ـ العقل ، أي التعميم والاطلاق في الحــكم نتيجة النعمق في دراسة الاثر الخارجي المشار اليــه .**

ويلخص الكُتّاب الدياليكتيكيون ذلك بقولهم :

«هل نعتبر الاليكترون والفوتون الموجودين خارج وعينـــا واللامدركين بأعضاء حواسنا ، هل نعتبرهما رغم ذلك مدركيــن باحساساتنا ... لاشك انه يمكــن ويجب اعتبارهما كذلــك . ان التعريف لاينصب علي الطريقة بالذات التي يجب ان يؤثــر بها هذا الشيء المـــادي او ذاك علــى أعضاء حواسنا ... ان ادراكهــا ممكن عنــد الاستعانة بأجهــزة خاصة مهمتهــا تحويــل تأثير الاشــياء المعينة ، وهو التأثــير الذي لاتدركــه حــواسنا مباشرة ، تحويله الى شكل يمكــن ادراكــه»(١) .

وليس من معنى مقصود بهــذا النص الدياليكتيكي الا ان الشيء اما ان يكون محسوسا فيدرس ـ على ضوء الحــس ـ كظاهرة من الظواهــر الطبيعية . وامــا ان يكون غــير قابــل للأدراك بأعضــاء حواسنا فيدرس أثره الخارجي ـ على ضـــوء الحس أيضا ـ ، وان كان الاصــل غير قابــل للادراك بالحــواس .

---

(١) الماديــة الدياليكتيكيــة : ٨١ .

والمؤمن بالله تعالى سائر على المنهج نفسه ايضا في ايما
بالمبدأ الاعلى ، لانه لا يصل الى ايمانه هذا الا من طريق البحـ
والاستعانة بأدوات العلم والعقل والتأمل ، أي ان ايمانه يقـ
على دعامتين أيضا :

الاولى ـ الحس أو الاثر الخارجي ، أي المخلوقات عا
اختلاف أجناسها وأنواعها ، والفنونة العامة لشؤون الطبيعـ

الثانية ـ العقل ، أي الحصر العقلي بعد بطلان الد
والتسلسل اللانهائي وسائر ما تعلل به المنكرون .

ويقول الدكتور وولتر أوسكار لندبرغ في بيان ذلك :

«ان الطريقة العلمية تقوم على اساس انتظام الظواهـ
الطبيعية والقدرة على التنبؤ بها في ظل هذا الانتظام ، ونستطيع
نقول بكل دقة : ان هذا الانتظام في ظواهر الكون والقدرة عـ
التنبؤ بها ـ وهما الاساسان اللذان تقوم عليهما الطريقة العلميـ
هما في الوقت ذاته اساس الايمان »(١) .

واذن . فليس هناك منهج اتباعي سائد في الدين كما ز
الزاعمون ، وليس العلم والدين نمطين مختلفين من انماط التـ
كما ادعى المدعون ، وانما هو منهج عقلي حسي علمي برهاني هـ
بنفسه المنهج الذي يسير على ضوئه العلماء في تقرير الحقائـ
العلمية كلها .

وكيف يكون للدين منهج اتباعي ، وهذا كتاب
الخالد ينادي الناس جميعا بضرورة تحرير العقول من الجـ
والتعصب والتقليد ثم دراسة هذا الكون على هدى التفكيـ
الواعي المتحرر من سائر البؤر والرواسب الجاهلية السو
انه يقول :

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم : ٣٣ .

(قل : انظروا ماذا في السماوات والارض) .

(أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والارض) .

(الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم يتفكرون في خلق السماوات والارض) .

الى عشرات من الآيات الكريمة الآمرة بالنظر والتفكير والتدبر العميق(١)

* * *

وكلمة يجب ان تسجل هنا :

ان المتنازعين عندما يريدان اقامة البرهان على المسألة المتنازع عليها فلا بد من اختيار الحجة المتفق عليها بين الطرفين .

وحيث أن مسألة المصدر الاول للاشياء لايمكن البرهنة

عندما يتضح ماذكرناه في أعلاه لا أجد في نفسي حاجة الى التعليق على مايقوله الدكتور جورج حنا في كتابه قصة الانسان : ٢٥٧ من أن «الروحانية هي خضوع لهذه القدرة المعصومة .. فلا دخل للعقل البشري بالتطفل في تحليل موحياتها» ، فان كان يقصد بالموحيات ، وجود الطبيعة وما احتوت عليه ، فقد ثبت اننا مأمورون دينيا بفحصها وبالنظر والتعمق فيها ، وان كان يعني بالموحيات ، الاوامر والنواهي في الشرائع السماوية ، فذلك مايجب الايمان به عن قناعة ويقين . أما اذا كان يهدف من كل ذلك الى التشكيك والتهويش المتعمد فأين العلم ؟ وأين الموضوعية ؟ وأين التطبيل والتزمير للمنهج العلمي في البحث ؟ .

عليها الا من طريق العقل والدليل الفلسفي ، فلابد من نسير ــ الهيين وماديين ــ على هذا المنهج . أما التجربة ــ و التي يعتبرها الفكر المادي أساس الاستدلال الاول والاخير فانها لاتستطيع نفي مايقوله الفكر الديني ولا اثبات م يقوله الفكر المادي . لان نقطة النزاع بين الطرفين ليست هـ الحقائق العلمية المكتشفة التي يمكن اخضاعها للتجربة لمعرفـ الخطأ والصواب فيها ، ولان هذه الحقائق الخارجية المسل ليست هي الحقائق المجردة المتنازع عليها .

واذا كانت مسألة المصدر الاول للاشياء لا تخضع للمخت والتجربة حتى في رأي أشد الماديين تطرفا فلا بد ــ اذن من رجوع الطرفين الى البرهان الفلسفي لتحديد النتيجـ والتسليم بما يؤدي اليه ذلك البرهان .

أما ما قاله بعض الماديين من أن «العلم في جذوره ينف وجود قوى خارقة للطبيعة»(١) فيجب اعتباره نكتة للتسـ والمزاح ، اذ كيف يستطيع المختبر أن ينفي وجود قوى غيـ مادية لايمكن اخضاعها للتجربة والفحص والتحليل .

ويجدر بنا ــ بهذه المناسبة ــ ان لا تفوتنا الاشارة الـ جانب مهم قد يخفى على بعض القراء يتعلق بمسألة الفروق المتصورة بين الفكر المادي والفكر الديني في ميدان العلوم .

والحقيقة ــ ونقولها بملء الفم ــ انه ليس بين الفكر الدينـ والفكر المادي أي فرق او اختلاف في الحقل العلمي وفي سائـ المجالات التي برهنت عليها التجربة . وان حاملي هذين الفكريـ يلتقون ــ أوثق لقاء ــ في الاقرار بكل ماهو ثابت وصحيح .. سبب الخسوف والكسوف صحيح .. سبب المطر صحيح .. وهكذا .

---

(١) المادية الديالكتيكية : ٨ .

ويكون معنى ذلك ـ بايضاح أكثر ـ انه ليس في الحقل
لمي فكر ديني وفكر مادي ، بل فكر واحد متفق على
حة كل الجوانب الايجابية للعلم واكتشافاته .

أما الخلاف الموجود فانما هو في جانب النفي ، حيث يرى
كر الديني أن هناك وجودات مجردة عن المادة لاتخضع
جربة ولايمكن فحصها مختبريا ، مثل الروح ، ومثل
دراك . والفكر المادي ـ بحكم كونه ماديا صرفا ـ قد نفى ذلك
ل النفي ، لانه لايؤمن بغير حقله الحسي التجريبي ، وقد
حص جسم الانسان بكل دقة وراقب كل عملياته
جزائه فلم يجد فيه شيئا اسمة روح أو فكر او ادراك ، بل
يجد فيه أي شيء خارج عن المادة وعالمها المحسوس الملموس .

ولكن الفكر المادي ـ وقد مرت عليه سنون كثيرة ـ
رك أن هذا النفي خلاف بديهة الإنسان وادراكه المباشر
ضطر الى التراجع عن انكاره ذاك دون ان يعلن التراجع
عترف به بصريح العبارة . ولذلك نجد ان الاساتذة الماركسيين
حدثين قد اختاروا التعابير التالية في هذا الموضوع :

«ان العمليات الفيزيولوجية الجارية في المخ المفكر ، وان
تفكير الواعي .. عملية واحدة وحيدة ، والوعي هو حالتها
داخلية .. وعلى هذا لا يمكن اطلاقا الفصل بين الوعي
المادة المفكرة . وفي الوقت نفسه لاينبغي النظر الى الفكرة ،
ى الوعي ، على أنه مادة ، أو شيء ما مادي . وهذا خطأ
اديين العاميين»(١) .

وعلى الرغم مما في هذا النص من تضارب عجيب بين جملتي
لايمكن اطلاقا الفصل بين الوعي والمادة» و «لاينبغي

(١) المادية الديالكتيكية : ١٣٦ .

النظر الى الوعي على انـه مادة» فهو تراجع واضـح عن ذلـك التصلب المادي السابق واعتراف بوجود أشـياء لا ينبغي النظـر اليهـا على أنهـا مادة أو شيء ما مادي .

وانـه لتراجـع يبشـر بخيـر .

وممـا يزيد في ايضاح صورة هذا التراجـع اعتراف هؤلاء الاساتذة في مكان آخر من بحثهم بأن الطاقـة شيء غير مادي ، فهم يقـولون :

«صحيح انـا في كثير من قضايا العلـم ، التي يعتبر فيها تحليل الناحية الطاقيـة للعمليات ، أمرا اساسيا ، نستطيـع (وهـو ضروري أحيانـا) التجرد من البنية الذريـة للمـادة . ولكـن هذا لا يبـرر اطلاقا أن نهمـل على العمـوم ، الحامل المادي للطاقـة »(١) .

وهذا النص صريح في أن الطاقـة غـير ماديـة ولكن هناك حاملا ماديا للطاقـة لايصح أهمالـه .

وانـه لتراجـع آخـر يبشر بكـل خير .

ولولا تعبدهم الاعمى بمـادية كل شيء لكانوا أكثـر صـراحة ووضوحـا في التراجـع والاعتـراف .

ومع ذلك كله ..

فمهما أقمنا من برهـان وقدمنا من حجج فهي مرفوضة من بعضهم سلفا ، لانهـا تتصل بـ «ادعاء لاهوتـي يهبط مـن وراء المـادة ويلتف حـول العلـم ليعتبط الحقيقة الموضوعية متبرقعا بموروثات ليس لها حظ من المعرفة العلمية الحقة»(٢) علـى حـد

(١) المصـدر نفسـه : ٩٧ .
(٢) نظرية الحركـة الجوهريـة عند الشيرازي : ٤٩ .

تعبير أحـد الكتاب الراكضيـن وراء المـودة .

ولابد ـ في نظـر هـذا الكاتب ـ أن نـؤمن بكـل مـا يقتضيه «الافتراض» وما يؤدي اليه التخبـط من وجود الشيء الذي هو مادي وليس ماديا لكي نكون على اوفى «حـظ مـن المعرفـة العلمية الحقـة» .

ولان هذه الفظاعة في التخبط والتعبد الاعمى بالمـادة قـد بلغت حـدا لا يصح السكـوت عليه فأن فيلسوفـا كروجيـه غارودي لم يجـد بدا من التصريح ب «ان المادية لاتنكـر ابدا وجود الروح»(١) . ولابـد انه قد اعترف بهذه الحقيقة غيـر الماديـة لادراكـه بأن انكـار ذلك هو الذي يلتف حـول العلـم ليعتبط الحقيقة الموضوعيـة متبرقعا بأفكـار لم يعـد لهـا حظ مـن المعرفـة العلميـة الحقـة ، وليس العكس .

ومهما يكن من أمـر :

ف « ان قـاعدة الاثبـات والنفي في مناقشات الخصـوم لا تنطبق علـى هـذا الموضوع . فليس للعقـل البشـري خصومة في الاثبات ولا خصومـة في الانكـار . وليس على أحد عبء الدليـل كله ولا على أحـد عبء الانكـار كله في البحث عـن حقيقـة الوجود .. وربما كان المنكـر هنا هو صاحب الادعـاء وهـو أحق الخصمين بالجهد في طلب الدليل ، لانـه اذا قال ان المادة قادرة على كل تدبير نراه في هذا الكون فليس كلامه هنـا مجـرد انكار لوجود الله او التزام للخطـة الوسطى بيـن الاثبـات

---

(١) النظـرية المادية في المعرفـة : ٣٠ .

والانكار»(١) .

«اما العلوم الطبيعية نفسها فليس من شأنها أن تخول اصحابها حق القول الفصل في المباحث الالهية والمسائل الابدية، لانها ـ من جهة ـ مقصورة على ما يقبل المشاهدة والتجربة والتسجيل ، ومن جهة أخرى مقصورة على نوع واحد من الموجودات ، وهي بعد هذا او ذاك تتناول عوارض الموجودات ولا تتناول جوهر الوجود ، وهو لا يدخل في تجارب علم من العلوم »(٢) .

* * *

ومما تجب الاشارة اليه في هذا المقام : تلك الظاهرة التي يصطدم بها القاريء عندما يقلب مؤلفات الماديين وبحوثهم ، وهي ذهابها الى تأكيد وجود مفهومين فلسفيين او خطين فكريين في البحث العلمي المعني بنشأة الكون ووجود العالم هما : المفهوم المثالي الروحي والمفهوم المادي من دون الاشارة ـ بل الاعراض الكامل ـ الى المفهوم الثالث في هذا الموضوع .

ويقول بعض الكتاب السوفييت في هذا الصدد :

«ان كل الظواهر التي نعالجها اما أن تكون مادية اي خارجة عن وعينا ـ الأشياء وعمليات العالم الخارجي ـ ، واما روحية فكرية أي لاتوجد الا في وعينا ـ المشاعر والافكار والتفكير وغيرها ـ . مادي وروحي هذان هما المفهومان الواسعان للغاية اللذان يشملان كل ماهو موجود في

(١) الله للعقاد : ٢١٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٨٢ .

العالم .. المادية والمثالية »(١) .

ثم يقول هؤلاء بعد ذلك :

«ان كل الاتجاهات الفلسفية المتنوعة تلتحم في التالي اما بمعسكر المادية واما بمعسكر المثالية »(٢) .

ويقول الكاتبان السوفييتيان سبيركين وياخوت :

«في فلسفة كل عصر تاريخي وجدت دائما احزاب واتجاهات متصارعة . وهذه الاحزاب والاتجاهات هي المادية والمثالية »(٣) .

ثم يقولان بعد ذلك :

«هذان هما المعسكران اللذان انقسم [illegible] الفلاسفة : معسكر الماديين ومعسكر المثاليين ، وهما يقفان في مواجهة بعضهما البعض عبر تاريخ الفلسفة كله ... وطوال تاريخ الفلسفة يدور بين المادية والمثالية صراع لاهوادة فيه . ويظهر ذلك الصراع في حل جميع المسائل الجذرية»(٤) .

ولتوضيح الحقيقة نقول :

ان المفهوم المثالي الروحي المشار اليه قائم على اساس ان الطبيعة عبارة عن الوان من التصور والفكر فقط ، وان هذا الفكر والتصور هو الحقيقة ، وان كل شيء يرجع بالاخير الى التصور الذهني ، وانه ليس هناك شيء او واقع غير هذا

---

(١) المادية الديالكتيكية : ٣

(٢) المصدر نفسه : ١٥ .

(٣) أسس المادية الديالكتيكية : ٨ .

(٤) المصدر السابق : ١٠-١١ .

التصور او هذا الشعور ، وان المادة انما هي تلك « الفكرة التي نضعها عن المادة من دون ان يكون لها وجود خارجي مستقل» على حد تعبير هؤلاء المثاليين .

اما المفهوم المادي فهو المفهوم المنطلق من الايمان بالواقع القائم على المادة المحسوسة فقط ، باعتبارها « موجودة موضوعيا اي مستقلة عن الوعي» .

وكانت فرحة الماديين عظيمة بتوصلهم الى مرحلة الوجود الموضوعي للمادة ، واعتبروها معول الهدم الأكبر لمزاعم المثاليين ـ أي خصومهم الفكريين بشكل عام ـ ، ولعل النصوص الآتية تكشف لنا مقدار اعتمادهم على هذا الوجود الموضوعي في تسفيه أفكار المثاليين :

«ان الخاصة الوحيدة للمادة ، كما أشار لينين ، وهي التي تأخذ المادية الفلسفية بها ، هي خاصة كون المادة واقعا موضوعيا ، خاصة كونها موجودة خارج وعينا »(١) .

«ان تقدم العلوم الطبيعية يجبر المثاليين على الاعتراف بوجود الذرات والاليكترونات والفوتونات وما شابه ذلك . والأمر الوحيد الذي ينكرونه هو أن هذه الصغيريات عبارة عن واقع موضوعي »(٢) .

«اذا أردنا طرح المسألة من وجهة النظر الصحيحة وحدها .. وجب أن نتساءل : هل توجد الالكترونات ، الاثير ، الخ خارج الوعي البشري ، وهل لها واقع موضوعي أم لا ؟ ان الطبيعيين يجب أن يجيبوا على هذا السؤال ، ويجيبون

---

(١) المادية الديالكتيكية : ٧٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٨٥ .

دوما دون تردد بالايجاب ، اذ ليس لديهم داع للتردد في التسليم بوجود الطبيعة قبل الانسان وقبل المادة العضوية . وهكذا تحسم المسألة لصالح المادية »(١) .

والقاريء عندما يقف على حسم المسألة لصالح المادية لا يعلم الا الحسم ضد المثاليين وهم ـ كما يحاول الماديون تصويرهم ـ مجموعة الافكار ، أو « الجبهة » الفلسفية ، ضد المادية .

ولكننا لو وقفنا على المفهوم الثالث الذي أغفله الكتاب الماديون وهو «المفهوم الالهي» أو «الفكر الديني» لرأينا منظارا جديدا يمتد بكل دقة وعمق ليطرح رأيه الخاص الذي يحول هذين المعسكرين الى ثلاثة .

انه المفهوم القائم على نفس الاساس الواقعي الذي تقوم عليه الفلسفة المادية في التأكيد على ان الكائنات عبارة عن حقائق موجودة مستقلة عن الفكر والشعور كما هو صريح القرآن الكريم ، ولكنه يختلف عن المادية بايمانه بالسبب غير المادي لكل هذه المدركات .

وهكذا يصبح المفهومان أو الخطان الفكريان الفلسفيان اللذان تحدث عنهما الماديون كثيرا ثلاثة مفاهيم :

فاذا نفينا الواقع الخارجي للموجودات وفرضناها بأجمعها محض تصورات أو صور ذهنية ، فذلك هو مقتضى المفهوم المثالي .

واذا أثبتنا الواقع الخارجي ونسبنا كل مافيه للمادة وحدها فذلك هو مقتضى المفهوم المادي .

أما اذا أثبتنا الواقع الخارجي وأرجعنا كل مافيه الى سبب فوق المادة ، فذلك هو مقتضى المفهوم الالهي أو الديني .

---

(١) النظرية المادية في المعرفة : ٢٢ .

واذن . فهنــا ثلاثة مفاهيم لا مفهومان ، وان محــاولة حصرها بمفهومين انما يراد بهــا اظهار المادية بمظهر الفكــر الوحيد الذي لا يشاركه غــيره في الايمان بالواقع الموضوعي ، وليقــال ـ من ثم ـ بأن الفكر المعارض للماديــة هو ذلك الفكــر المثالــي الخيالي القائم على التفسير التصوري الخــالص ، بعيــدا عــن الايمان بالواقع الموضوعي المستقل .

واذا جاز لنــا ان نقدم بعض العــذر للفلاسفــة الغربيــين بجهلهم لحقائق الفكر الاسلامي الواعي ، فمــا هو عــذر ذلــك العربي الســاكــن في لبنان اذ يقــول : «ان المثالية وليــدة الغيبية ، والغيبية وليدة الروحانية ، والروحانية وحــي والهام من قــدرة فيما وراء الطبيعة .. الروحانية فكرة مثالية»(١) .

---

(١) قصة الانسان لجورج حنا : ٢٥٧

ولعل من الراجح ـ توضيحا للقاريء الكريم ـ أن نقف قليلا عند هذا الكاتب لنحدد هويته ، ماركسيا كما يزعــم او مبشــرا مسيحيا كما هو الواقــع :

لقد عبر جورج حنا عن اعجاب كبير بالمسيح حيث «قلب وجه التاريخ» وحيث انطلقت «الثورة المسيحية المعقودة اللواء لمولود بيت لحم» ، وحيث «كان المسيح اشتراكيا بالفطــرة» ، وحيث «كانت ثورة اجتماعية هائلة تلك التي أضرمها مولود بيت لحم ، ووضع فيها الاساس للمذاهب الانسانية الحديثة» وحيث «ان الثورة المسيحية بالرغم من اقتصارها على الناحية الدينية والروحانية ، فقد خلقت ثورة اجتماعية واخلاقية واقتصادية أيضا» وحيث ان«المسيحيةاذن ليست ديانة وحسب ، انما هي حضارة انسانية دفعت البشريــة خطوات واسعة الى الامــام» . قصة الانسان : ٦٢ و٦٤ ـ ٦٨

=

. . . .

=
و٢٥١ ـ ٢٥٢ .

وأما محمد «ص» في نظر هذا الكاتب فهو ذلك الانسان الذي «يخلو الى نفسه ويطلق العنان لتأملاته وأحلامه» ، حيث كانت تمر عليه «سويعات يغشاه فيها ذهول ويتراءى له الملك جبريل» ، وان الاسلام في نظره يختلف عن المسيحية «بانشائه ـ أي الاسلام ـ قومية شيد الى جانبها ملك أرضي» بـل ان الرسالة الاسلامية كانت قومية «اذ قام معتنقوها بغزوات متواصلة لتوسيع نطاق الدولة الاسلامية، لا عن طريق التبشير وحسب ، بـل عن طريق الفتح والحروب» . قصة الانسان : ٧٦ و٧٩ و٨٠ .

ان ماكتبه هذا الكاتب عن المسيح ومحمد يكشف عن حقيقته كمبشر ديني يغمز نبي الاسلام ذا «الاحلام» و «الذهول» ومؤسس الملك القومي الارضي بالفتح والحروب ، وليعطي قارئـه صـورة مقصودة عن الثورة المسيحية الاشتراكية التي قلبت وجه التاريخ بما حملته من ثورة اجتماعية واخلاقية واقتصاديـة وحضـارة انسانيـة .

ونحن اذ يسرنا ـ كل السرور ـ ان يكون ايمانه بالمسيح عليه السلام على هذا الوجه الجميل الناصع نقول :

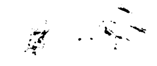
أين الحقيقة العلمية ؟ وأين الموضوعية ؟ وأين التجرد المادي عن اللاهوت ؟ وكيف أصبح محمد رجل أحلام ولا يتراءى له جبريل الا في ساعات الذهول ؟ وكيف صار الاسلام دينا قومياً في الوقت الذي يعلن فيه قرآنه رسالته الاممية التي لاتعرف الحدود القومية ؟ .
ولماذا لم يشر الى الحضارة الاسلامية ومـا حملته الى البشرية من ثـورة اجتماعية واقتصـادية واخلاقيـة ؟

ولن نعلق على ربط المثالية بالغيبية والروحانية ـ أي ربطها بالدين ـ الا بالاشاره الى ان هذا الزعم جزء لايتجزء من الحمله التشهيرية أو الحرب النفسية ضد الفكر الديني بشكل عام وضد الاسلامي منه على وجه الخصوص .

وعلى كل حال ..

وبالنظر الى ما أحيط به بحث المادة من بريق واشعاع قد يخلب البصر فيحسبه الظمآن ماء ، وأداء لحق البحث العلمي المعتمد على الحقائق والمنزه عن ضوضاء المزاعم وضجيج الادعاءات ، رأيت أن أضع هذه الصفحات بين يدي القارىء المتطلع ، عسى ان يجد فيها الجواب المقنع والايضاح القادر على ازالة الشكوك وتمزيق الضباب وجلاء الواقع . على ان لايفوتني الاعتذار عما سيلاحظه القراء من كثرة الاستشهاد بالنصوص التي كتبها فلاسفة المادة وكبار كتابها ، وتلك ضرورة فرضها التعمق في البحث واستيعاب كل ما قيل في اطرافه وجوانبه مما لابد من عرض تلك الشواهد فيه لنصل الى النتيجة بقناعة واطمئنان ووضوح رؤية . والله ولي التوفيق .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .



الكاظمية ـ العراق **محمد حسن آل ياسين**



- ١ -

أ) وجود الشيء ـ أي شيء ـ بدون سبب للوجود أمر غير معقول . بل لابد لكل معلول من علة ، ولكل موجود من موجد ،ولكل مسبب من سبب ، ولكل مخلوق من خالق ، حتى تنتهي المسألة الى سبب الأسباب وعلة المعلولات، الذي لم يكن لوجوده سبب وليس بحاجة الى علة .

وتلك بديهية لامجال فيها لأخذ ورد .

وقد اتفق على بداهتها كل الناس المفكرين من دينيين وماديين .

وما العلم في تقدمه الهائل الا مجموعة كشوف عن العلل والأسباب . ولولا ذلك لما كان العلم الا أصفارا مصفوفة على اليسار .

وبديهية اخرى لاتقل عن هذه بداهـة ووضوحا ، تلـا
هي : ان العلم المعاصر لايقول لنا : مـن أين جـاء هـذا السـد
ومن أين جاءت هذه المـادة التي تطور منها كل شيء كما ادعـ
المدعـون ؟

وعلى الرغم من اعتراف الكتاب السـوفييت بدلالة
«المعطيات العلمية على أنـه حتى الاجـرام السماوية الموجـو
منذ المليارات ومئات المليارات من السنيـن ، لهـا بدايـة ونهاية
وانهـا تنشأ وتهلك »(١) فانهم لم يقولوا لنـا : كيـف تنشـ
هذه الاجرام ولماذا تهلك ، لعلمهم بأن لا سبيل الـى معـر
ذلك في ضوء المعلومات المتوفـرة لدى الانسان .

وقد سبق لاحـد المؤمنين بالمادة ان قـال بكل صـراحة
«في الواقـع.علينا ان نعتـرف بكل تواضع بجهلنا حول كـل مـ
يتعلق بمشكلـة المصدر الاول للكـون ... عندما تسألني : ومـ
علة وجود المـادة الاولى ؟ فان أقصى ما أستطيع الاجابة بـه
لا أعرف ، الا أنها غير معلولـة الوجـود ! » ثم يضيف معلقـ
على ذلك ، «ليس من المعيب ان نعترف بجهلنا »(٢) .

واذا كانت المسألة ـ مع كل رنينهـا وطنينها ـ عبارة عـ
«اعتراف» «بكل تواضع» « بالجهل » فكيف أصبحت فلسـ
وعلما ورأيا وفكـرا ومنهجـا ؟!

ان مجموعة الاسـاتذة الماركسيين السـوفييت يقولون
أثناء بحثهم عن المادية الديالكتيكية ما نصـه :

---

(١) الناس والعلم والمجتمع : ١٤ .

(٢) نقـد الفكـر الديني : ٢٨ـ ٢٩ .

«ان ممارسة اليــوم ليست كافيــة للبرهنــة على الفرضيات الكونية . فنحن لايمكننــا القــول بأن الكواكب قد تشكلــت فعلا على النحــو الذي تصوره اية فرضية من الفرضيات المعتــرف بها على أوسع نطــاق ... ان وجود فرضيات في العلــم يدل على ان هناك الكثير من الامور التي لم يبرهن عليها بعد »(١) .

ويروي الفيلسوف المادي روجيه غارودي عن أدينغتون قوله: ان الاعتبارات حول بداية الاشياء تكاد تفلت من التفكير العلمي . نحن لا نستطيع أن نعطي أسبابا علمية للتأكيد بأن هذا العالم قد خلق بشكل دون آخر »(٢) .

كما يروي غارودي في الصفحة نفسها مانصــه : « يبدو ان البداية تعترضهــا صعوبات لايمكن التغلب عليها الا اذا اتفقنــا على أن ننظر اليها بصراحة كأمر فوق الطبيعي»(٣) .

كذلك حدثنا غارودي في خلال بحثه المادي حديثا موسعــا عن الاوضاع الفكرية الجــديدة وقــال : « أوجد الاكاديمــي وتوشميدت فرضية جــديدة طرحت بشــكل حــاد مشكـلات جديدة أمام العلم الســـوفياتي وأوجبت اعادة النظر بمســائل عديدة كان يظن انها محلولة »(٤) .

ويقول الدكتور بول كلارنس ابرسولد من علمــاء الطبيعــة الحيوية في الغــرب : «أن العــلم والعقــل الانساني وحدهما لــن يستطيعا أن يفســرا لنا لماذا وجدت الذرات والنجوم والكواكب

---

١) المادية الدياليكتيكيــة : ٣٧٤ .
٢) النظرية المادية في المعرفة : ١٠٨ .
٣) المصدر نفسه : ١٠٨ .
٤) المصدر السابق أيضا : ١١٠ .

والحياة والانسان بما أوتي من قدرة رائعة . وبرغم ان العلو
تستطيع ان تقدم لنا نظريات قيمة عن السديم ومولد المجرا
والنجوم والذرات وغيرها من العوالم الاخرى ، فانها لاتستطي
أن تبين لنا مصدر المادة والطاقة التي استخدمت في بناء هـ
الكون ، أو لماذا اتخذ الكون صورته الحالية ونظامه الحالي »(١

واذن . فالمصدر الاول للكون مجهول عند هؤلاء
والاعتبارات حول بداية الاشياء تكاد تفلت من التفك
العلمي ، وليس من حل لهذه المعضلة سوى «الافتراض» اولا
ثم الاعتذار – ثانيا – عن اقامة البرهان بالاعتراف «بك
تواضع» «بالجهل» بكل مايتعلق بمسألة المصدر الاول للكون

واذا كان الامر كذلك فلماذا يطالبوننا بالبرهان ؟

ولماذا يلزمنا البرهان على آرائنا ولا يلتزمون باقامة البره
على ما يرتأون ؟

وهل يقبلون منا ان نقول : اننا نؤمن بالله تعالى ونعت
ذلك حقيقة لايرقى اليها الشك ، ولكننا «نجهل» «بك
تواضع» كيف نقيم البرهان على ما نعتقد ؟

واذا صح من الكاتب المادي ان يصيح بملء شدقيه : «
نعرف ولن نعرف كيف يكون الجواب على مشكلة المص
الأول للاشياء»(٢) . ومع ذلك فهو يؤمن بالمادة ذلك الايم
الاعمى الذي لايقبل جدلا او مناقشة فيه ، فلماذا لايص

(١) الله يتجلى في عصر العلم : ٣٧ .
(٢) نقد الفكر الديني : ٢٩ .

نـا ان نقول مثل ذلك بالنسبة الى الله نعالى ثم نؤمن بـه ايمانا
ايقبل الجـدل والمناقشة كذلك ؟

واذا جاز للفيلسوف المادي ان يقـول بكل صراحـة « ان
استطاعنا بهذا الشكل قطاعا من العالم الذي نجهل فيه ـ بالتعريف
اتـه ـ الاصل الحقيقي للحركات الملاحظة ... يقودنـا بالبداهـة
ى التحقق من وجود «قوى» والتسليـم بـ «بدايات اولـى» .
هذا النوع من البرهنة العزيز على قلوب القائلين بمـذهب خلـق
عالم ، ليس سوى افتراض »(١) ، فيرفض الايمـان بالبدايـات
اولى لأنهـا افتراض ، فلماذا لايعذرنا في رفضنا لفكره المـادي
ه افتراض كذلك وباعتراف بعض الماديين انفسهم كما سلف .

ومع ذلك كلـه ...

فنحن ـ كما أمرنا قرآننا ـ اتباع البرهـان لا الافتراض ،
بناء الدليل لا العاطفة . ومن هنا سننطلـق في هـذا البحـث
وادة ، ونتخطى نقـاطه الرئيســة بتمهل وعلى مراحـل لا
عدى كل واحدة منها الا بعد اتقان فحصها والتعمـق في فلفلة
يلهـا ، عسى ان نصل ـ على هدى هذا المنهج المتأني المدقـق ـ
ى مايقتنع بـه العقل ومـا يفرضـه المنطق في هذه المسألـة
اساسية الكبرى التي مازالت تشغل الفكر البشري فـي كـل
ـان وعلى كل المستويات والاتجـاهات .

---

(١) النظرية المادية في المعرفة : ١٠٦ .

- ٢ -

معنى كلمة (مادة)

وما دام البحث معنيا بالمـادة فلا بد ان تكـون الخطـو
الاولى على الطريق متجهـة نحو تحديد معنى واضح ودقيق لكلمـ
« مادة » ، لنكـون على علم بما يقصـده الكتاب الماديون م
اطـلاق هذه الكلمـة .

يقول روجيه غارودي في تعريف المادة :

«التكلم عن المادة بصورة عامة يعني محـو الفوارق الكيف
للاشـياء بدمجها كلها في مفهـوم واحد ، عندئذ تفقد هذه المـا
وجودهـا الحسي فتكـون تجريدا فارغا ، ويكـون مـن العبث
التسـاؤل عن ماهيتهـا »(١) .

ولعلنـا نستطيع ان نعـد هذا الجـواب ــ بيـن أجوبـ

(١) النظريـة الماديـة : ٧٣ .

ماديين ـ اقربهـــا الى المنطق الفكـري الفلسفـي البعيد عــن وغائيــه التعابير وأساليب التهريــج الاعلامي ، ولكنـــه ليس تعريفا محددا لـ «المادة» كما يعنيهــا الباحثون الماديون المعاصرون .

أما الكاتبان السوفييتيان سبيركين وياخوت فقد عرفــا المادة بما نصــه :

«يحيط بنا عــدد لانهائي من الاشياء والظواهر . احجــار اشجار ، رميلات وشمس ، صحــاري ، بحــار ، ومحيطــات ، نجوم وكواكب ، حيوانات ، وكثير كثــير غــير ذلــك . نحــن نسمي هذا كله بكلمـــة واحدة : المادة »(١) .

وهذا التعريف لا يحمل أية ملامح فلســفية مطلقا ، بل هو تعريف مدرسي يمكــن ان يعطى لطـــلاب الصفوف الاولـــى الابتدائيـــة على مقدار افهــامهم .

ولكن هذين الكاتبين على الرغم من تعريفهمــا الساذج للمــادة يجدا بدا من الاستشهاد بكلمة للينين يقو ل فيهــا :

«انه لايجب اعتبار المادة ما هــو مادي مجســد وحسب . الضوء مثلا يمثل شكلا غير مادي من وجود المادة »(٢) .

ولقد كان لينين مضطرا الى هذا التعبير ليكــون كــل مافي الكون مادة في نظره ، ولكننا لم نفهــم من الناحيــة العلميــة او الفلسفية معنى هذا التقسيم وكيف يكــون الشيء « مــــادة » شكلا غير مادي» في نفس الو قت ؟

ولقد سلف منا في المقدمة أن أشرنا الى ماذهب اليه نص

---

(١) اسس المادية : ٢٥ ، وقريب منه في كتاب النـاســ والعلـم والمجتمع : ص ١٢ ـ١٣ .

(٢) اسس الماديــة : ٢٨ .

مادي من امكان ـ بل ضرورة ـ تجريد الطاقة من شكلها المادي ، على ان لا يكون ذلك مبررا لاهمال الحامل الماد للطاقة .

وهكذا وقع الماديون في هذا الاختلاف العجيب لانهم يريدون ان يعتبروا كل موجود «مادة» ولانهم لايستطيعو تبرير «مادية» كل شيء .

وهكذا لم نصل في كل النصوص السالفة الى كلام علم دقيق سوى الاعتراف بالجهل بماهيتها وان من العبث التساؤل عن تلك الماهية .

نعم ، ربما يكون روجيه غارودي قد حاول الدقة التعريف حينما قال :

المادة «هي الواقع الموضوعي ، المستقل عن الروح »(١)

ولعله يهدف من تعريفه هذا الى تقسيم الموجودات الى : ما وهي «الواقع الموضوعي» المجسد المحسوس ، وروح وهو شيء غير مادي وغير مجسد .

وعلى كل حال ، فمن حقنا ان نعود الى سؤالنا الاول ماهي المادة ؟

(١) النظرية المادية : ٢٣ .

هل هي الاشياء المجسدة كما قال الكاتبان السوفييتيان ؟

هل هو الواقع الموضوعي كما يقول غارودي ؟

هل هو ماينقسم الى شكل مادي وشكل غير مادي كما

ـول لينين ؟

لاندري !

ومع ذلك فان التعريف العام المستنبط من الكتابات المادية

ل : ان المادة هي الطبيعة بكل ماتشتمل عليه من أجسام

شياء .

ولا مانع لدينا من الالتزام بهذا التعريف في بحثنا هذا

دام هو المفضل لدى هؤلاء الماديين .



- ٣ -

وعندما ينتهي الحديث عن هذه المرحلـــة ينتقل الكلام الى المرحلة الثانية فيقفز السؤال التالى الى الذهن على الفور :

هذه المادة ، الطبيعة ، متى وجدت وكيف ؟

يقــول هيجـــل :

« لا شيء أزلي سوى المادة »(١) .

ويقول الكتاب السوفييت في بحثهم الموسع عن الماديـــة :

«الفلاسفة الذين يعترفون بأولوية المادة يدعــون بالماديين ،

---

(١) النظرية المادية : ١٢٠ . ومن المناسب هنا أن نروي ماذكره ولترستيس في تحديد معنى الازل اذ قال :

« ان الازل ليس امتدادا لا حد له ، أو استمرارا لا نهاية له الزمان ، والنظام الالهي الذي هو نظام الازل » .

ثم يقــول :

«الحق ان هناك نظامين : النظام الطبيعي الذي هو نظــام الزمان ، والنظام الالهي الذي هو نظام الازل» .

الزمان والازل : ١٧٣ ـ ١٧٤ .

وهم يعتبرون ان العالم الذي يحيط بنا لم يخلقه احد وأن الطبيعة موجودة أزليا »(١) .

ثم يقولون :

«وكل تطور علم الطبيعة يبرهن على ان الطبيعة ليست مخلوقة ويدل على أزلية المادة »(٢) .

ويقول كتاب سوفييت آخرون :

«تثبت الخبرة البشرية على مر العصور ، عدم امكان نشوء أهداف مادية من لاشيء . وهذا يعني ان المادة وجدت منذ الازل وستبقى الى الابد »(٣) .

ويقول الكاتبان السوفييتيان سبيركين وياخوت :

«انها وجدت دائما ومنذ الازل » . ثم يتساءلان : « كيف اذن تثبت هذه النتيجة الهامة » ؟ . ويستشهدان في الجواب بما يروياه عن العالم الروسي م. ف . لومونوسوف اذ يقول :

«في الطبيعة لاينشأ شيء من لاشيء ولا يختفي ابدا بلا أثر . ولكن اذا كان الامر كذلك فان المادة ، الطبيعة قد وجدت دائما . لاننا اذا سلمنا بأنه في وقتمن الاوقات لم يكن هناك شيء في العالم اي لم تكن توجد مادة فمن أين لها أن تنشأ . ولكن ما ان توجد المادة ، فهذا يعني انها لم تنشأ

(١) المادية الديالكتيكية : ٣ .
(٢) المصدر نفسه : ٨ .
(٣) الناس والعلم والمجتمع : ١٤ .

في اي وقت من الاوقات ، بل وجدت دائما وستوجد دائما»(١) .

ان المتأمل في هذه النصوص يجد انها مجموعة أحكام بلا برهان ، بل بلا اشارة الى لمحة دليل أو قبسة تبرير ، ولعل النص الاخير يكشف لنا فراغ هؤلاء من الدليل الى درجة الصفر ، لانهم يرون ان عدم الاعتراف بأزلية المادة معناه التساؤل . «من اين لها أن تنشأ» ، وحيث ان الفرار من هذا التساؤل ضروري فلابد انها أزلية !

وهل يرى انسان له فهم وشعور ان في طي هذه الجمل دليلا أو كلاما منطقيا مقبولا ؟

ومن هنا نجد ان اعتراف ذلك الكاتب المادي كان أكثر صراحة ووضوحا عندما قال :

«لماذا لانفترض ان المادة الاولى غير معلولة الوجود ، وبذلك يحسم النقاش دون اللجوء الى عالم الغيبيات »(٢) .

وهكذا تنتهي المسألة وتتبخر المشكلة !

وعلى كل انسان ــ كما يريد الماديون ــ أن يذعن ويرضخ ولايحتج .

«افتراض» ان المادة الاولى غير معلولة الوجود .

و «افتراض» ان هذه المادة ــ بحكم ازليتها ــ هي الموجد الاول .

ثم «التأكيد» على ضرورة الاقرار بهذا «الافتراض» ، لانه لو «لم تكن توجد مادة فمن اين لها أن تنشأ» .

---

(١) أسس المادية : ٣٠ ــ ٣١ .
(٢) نقد الفكر الديني : ٢٨ .

ولامانع ان تبني مسألة خلق العالم على هذه «الافتراضات» ! مادام ذلك حاسما للنقاش ومنقذا للناس من اللجوء الى عالم الغيبيات !

وهكذا تتجلى الحجة ، ويسدل الستار على المشكلة .

وقد نسي هؤلاء «ان الكلام على انه في مبدأ الكون كانت المادة ولاشيء غير المادة ، وان المادة سابقة في الظهور اطلاقا » هو لجوء الى عالم الغيبيات بل اقتحام لجة الغيب الى أعمق الاعماق .

وما اجمل ما علق به الدكتور فرانك الن استاذ الطبيعة الجوية بكندا على مثل هذا الكلام اذ يقول :

«من يذهب الى ان هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية يشترك مع الراي القائل بوجود خالق لهذا الكون ، في عنصر الازلية . ونحن في هذا اما ان ننسب صفة الازلية الى عالم ميت أو ننسبها الى اله حي »(١) .

ويقول احد الكتاب المسلمين معلقا على زعم أزلية المادة :

لقد «بدأوا من افتراض خاطيء وهو أزلية المادة ، اعتبارا من ان تسلسل الزمن في الماضي الى آجال سحيقة يمكن ان يوصلنا الى الازل أو اللانهاية . وهو خطأ ، فالزمن كمية محدودة، ومهما انضافت كميات محدودة الى كميات محدودة فالنتيجة لا تكون الا كمية محدودة ، ولا نصل مهما استرسلنا في الجمع والاضافة الى اللانهاية وبالتالي الى الازل »(٢)

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم : ٦ .

(٢) الله لمصطفى محمود : ١٠٦ ــ ١٠٧ .

- ٤ -

ومهما يكن من أمر ، فقد أكد هؤلاء الماديون ان المــــادة ازلية . ومعنى ذلك بصريح العبارة انها موجـــــودة منذ الزمن اللانهائي و «لم يخلقها الــه ولا انسان» على حـد تعبيرهـم .

واذن . فكيف صح من هؤلاء الماديين ان يقولوا في مكـان آخر من بحوثهم : «أن الحركة هي وسيلة وجود المادة »(١) .

بل ان هذا هو التناقض المفضـوح الذي لايمكـن عـلاجه بأي طريقـة من طرق اللف والدوران .

ان الحركة ان كانت وسيلة وجود المادة فمعناه ان الحركـــة أسـبق من المادة في الزمـان ، لان ماكان وســـيلة لوجود شيء متقـدم على ذلك الشـــيء زمنيـا في الوجـود ، وبذلك تصبح

(١) الماديــة الديالكتيكية : ٩١ .

الحركــة هي الموجود الاول ــحسب الادعــاء ــ وتكــون المادة متأخــرة في الوجــود والظهــور .

ولكن . هل يعتبر القول بأزليــة الحــركة وحدوث المــادة معقــولا ؟

والجــواب : كــلا ، والف كلا ..

ونزولا عند أهمية الحديث عن الحركة من الناحية العلميــة والفلسفية نرى ضرورة التفصيل الاوفى في هــذا الجانب مــن البحــثـ وان استعرضنا ذلك بشكــل مجمــل في دراســات اخــرى ــ فنقــول :

ان اول مايسترعي النظر ويجلب الانتباه لكــل قارىء للكتب المادية ــ على اختلاف أســـاليبها واتجاهـــاتها ــ ذلك الاهتمام الكبير الذي أحاط به الماديــون اكتشافهم للحركـــة على أســاس انهــا اللبنة الاولى في صرح «الصورة» التي تبنتهــا الفلسفة المــادية للكــون والعــالم ، وانها المنطلق الــذي يسيــر منهجهم الفكري على ضوئه نحو غايته المرســومة .

وعلى الرغم من كل ما أحيطت به مسألة «الحركــة» من اهمية وتأكيد لدى سائر الديالكتيكيين من الغربيــين والتابعين ، فان الموضوعية تلزمنــا بضرورة التنبيــه على ان ديناميكيـــة المادة ليست من مخترعات الفكر الديالكتيكي وانما هي من بنــات أفكار الفلسفة اليونانيــة اولا ثم تبلورت وتشذبت واتضحــت معالمهــا التفصيلية على يــد الفيلسوف المسلم الكبيــر صــدرالدين الشيرازي «من رجال القرن الحادي عشر الهجري» .

لقد ذهب الشيــرازي الى : «ان العــالم متجدد الوجــود والهوية ، وان حقيقته عين التغير ، وكل موجود زماني مسبوق بالعــدم الصريح الزماني بحسب ذاته وجوهره .. وكل وجــود

وتعين يتبدل وجوده وتعينـــه في كل آن»(١) .

ويشرح الشيرازي في بعض مؤلفاتـه تفاصيل « حركتـه » فيقـول :

ان «الجسم مادام في مكانه الاول مثلا ساكنا فهو متحـــرك بالقــوة وواصل الي مكانه المقصود بالقــوة ، فاذا تحـرك حصل فيه كمال أو فعــل لكنه بعد بالقوة في المعنى الذي هــو المقصــود من الحـــركة » .

« فالحــركة ــ اذن ــ كمــال اول للشيء لا من حيث هــو انسان او فرس او نحاس . بل من حيث هو أمــر بالقوة ، فهي وجود بين قــوة محضة وفعل محض » .

«وظن قوم : ان الحركــة هي الطبيعة ، أعنــي جوهــر الشيء الصوري . وليس كذلك ، بــل هي متحركيــة الطبيعة وحالها ، لانفسهــا ... فان الحركة هي نفس الخروج من القــوة الى الفعل ، لامابه يخرج الشيء منها اليه ، كالامكان ونظائره » .

« فالتســود ليس ســوادا اشتد ، بل اشــتدادا لموضوع في ســواديته . فليس في الموضوع سوادان : ســواد أصل مســتمر وسواد زائد عليه ، لاستحالة اجتماع مثلين في موضوع واحــد . بل يكون له في كل آن مبلغ آخر ، فيكون هذه الزيادة المتصلـــة هي الحركة لاالســواد ، فالاشتداد يخرجه من نــوعه الاول

(١) المظاهر الآلهيــة : هامش ص ٤٣ .

ويدخله في نوعه الثاني »(١) .

ويقول في بحث آخر له عن الحركة :

«معنى وقوع الحركة في مقولة هوان يكون للموضوع في كل آن مفروض من زمان الحركة فرد من تلك المقولة يخالف الفرد الذي يكون له في آن آخر مخالفة نوعية أو صنفية أو نحو آخر» .

«وربما يعتقد انها عبارة عن تغير حال تلك المقولة في نفسها . وهو فاسد ، لان معنى التسود ـ مثلا ـ ليس ان سوادا واحدا يشتد حتى يكون الموضوع الحقيقي للحركة في السواد نفس السواد، كيف وذات الاول في نفسها ناقصة ، والزائدة ليست بعينها الناقصة » .

«ولايتاتى لاحد أن يقول : ذات الاول باقية وينضم اليها شيء آخر» .

«فان الذي ينضم اليه ان لم يكن سوادا فما اشتد السواد في سواديته بل حدث فيه صفة اخرى ، وان كان الذي ينضم اليه سوادا آخر فيحصل سوادان في محل واحد بلا امتياز بينهما بالحقيقه أو المحل أو الزمان ، وهو محال . واتحاد الاثنين من السواد ايضا غير متصور ، لانهما ان بقيا اثنين فلا اتحاد ، وكذا الحال ان انتفيا وحصل غيرهما ، أو انتفى احدهما وحصل الاخر ».

«فقد علم ان اشتداد السواد ليس ببقاء سواد وانضمام آخر اليه ، بل بانعدام ذات الاول عن الموضوع وحصول سواد آخر اشد منه في ذلك الموضوع مع بقائه في الحالين ، وعليه القياس في التضعف »(٢) .

وبثبوت هذه «الحركة الجوهرية» للمادة في الفكر الديني الفلسفي يتجلي مقدار البعد عن الواقع فيما يقوله ستالين :

---

(١) الشواهد الربوبية : ٩٥ ـ ٩٦ .

(٢) الاسفار/السفر الاول/ج١ ص٤٢٣ـ٤٢٤ .

« ان الديالكتيك خلافا للميتافيزية لايعتبر الطبيعة حال سكون وجمود ، حالة ركود واستقرار ، بل يعتبرها حالة حركة وتغير دائمين ، حالة تجدد وتطور لاينقطعان »(١) .

فقد ثبت بما لا مزيد عليه ـ كما أسلفنا ـ ان الميتافيزيا الواعية مؤمنة بالحركة كل الايمان ، وقبل ان يتكون «الديالكتيك» بعهد طويل .

وتشكل هذه التهمة حلقة في سلسلة التهم التي توجه الى الميتافيزيقية الفلسفية بهدف تشويه أفكارها والتضبيب على منهجها العقلي الدقيق .

وتذكرنا هذه التهمة بما نسبه عدد من الكتاب السوفييت الى العلماء الطبيعيين ذوي التفكير الميتافيزيكي من قولهم : « بأن المادة لا وجود لها »(٢) .

في حين ان التفكير الديني الميتافيزيكي يؤمن بوجود المادة الموضوعي كما أسلفنا تفصيله في مقدمة الكتاب .

---

(١) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية لستالين : ٢٤ـ٢٥ .
(٢) المادية الديالكتيكية : ٩٧ .

- ٥ -

ولعل سائلا يسال :

اذا كانت ((الحركة)) محل اتفاق الفكرين الديني والديالكتيكي فاين يقع الاختلاف ؟

والجواب :

ان خلاصة ما فهمناه من الحركة الجوهرية في الفكر الفلسفي ان المادة في كل مرحلة من مراحلها ـ وبحكم كونهامتحركة ـ ذات شقين :

الحالية ـ باعتبار الشيء المرحلي موجودا .

والتجدد ـ باعتبار ان في الشيء قوة الانتقال وامكانية التطور الى مراحل اخرى . وهذا هو القانون الطبيعي الذي اشار اليه القرآن الكريم في بيان خلق الانسان وانتقاله من مرحلة الى مرحلة : نطفة ، علقة ، مضغة ، جنين ، طفل ، صبي ... الخ .

فهو في المرحلة الاولى نطفة بالفعل وعلقة بالقوة . ثم يكون بعد ذلك علقة بالفعل ومضغة بالقوة ... وهكذا ، وتكون النتيجة : أنه يوجد في كل مرحلة جانب فعلي هو الواقع الموجود وجانب امكاني هو قوة التطور الى مرحلة ثانية .

أما الديالكتيك فقد خلط بين جانبي القوة والفعل وأطلق على هذا الخليط اسم «التناقضات» ، ثم اكد ان التطور انما يتم بنتيجة الصراع بين هذه « التناقضات الداخلية » وبذلك سقط في دوامة التناقضات ولم يستطع الخروج منها بمحصل فلسفي مقبول .

ان الحركة الجوهرية كما ارتضيناها حركة تطورية من مرحلة الى مرحلة حيث يلتقي في كل مرحلة جانب الفعل وجانب القوة بلا صراع ولا تناقض .

والحركة في المادية الديالكتيكية ـ وبدافع من العمل السياسي لا الفكر الفلسفي ـ حركة قائمة على تناقضات داخلية متصارعة تؤدي بحكم تناقضها وصراعها الى الانتقال الى مرحلة اخرى .

ان الكتاب الماديين يقولون :

«ان الحركة هي تناقض واضح»(١) .

«صراع الاضداد هو المحتوى الداخلي للحركة»(٢) .

« ان دراسة الحركة ... تظهر لنا ان النمو هو صراع الاضداد ، وتساعدنا على فهم مصدر الحركة الذاتية للمادة »(٣) .

---

(١) المادية الديالكتيكية : ٢٦٢ .
(٢) النظرية المادية : ٦٩ .
(٣) المصدر السابق : ٩٤ .

«أمام النظرة الميتافيزيقية عن العالم ، التي تنكر المتناقضات كمصدر للتطور في العالم الموضوعي يقف الديالكتيك الماركسي .. يؤكد ان جميع الاشياء والظواهر ذات تناقضات داخلية »(١) .

«لقد أسس أرسطو القانون المنطقي الشكلي للتناقضات . وبموجب هذا القانون لايمكن ان نقول أحكاما متناقضة عن الشيء المأخوذ في علاقة واحدة ، وفي زمن واحد . هذا القول لاشك في صحته . فالانسان الذي يؤكد بأن هذا النمط موجود وغير موجود يحق لنا تماما ان نقول عنه انه غير صحيح التفكير ... الا ان أرسطو ذاته الذي عبر بصحة عن هذا المبدأ للتفكير المستقيم منطقيا ، والذي لا تناقض فيه ، توصل الى نتيجة خاطئة مفادها ان التناقضات الداخلية في الاشياء الموجودةموضوعيا غير ممكنة . انه يقول : «اذا كان ليس بالامكان ان نكون صادقين في قولنا ، عندما نؤكد وننفي في وقت واحد شيئا ما ، كذلك فليس بالامكان اعطاء تعريفين متناقضين في وقت واحد لشيء واحد » . لا شك اننا (وما زال الحديث لبعض الكتاب الديالكتيكيين) لا نستطيع القبول بذلك . فلا ينبغي اطلاقا ان نستنتج من قولنا بأن الاعتراف في وقت واحد ، بوجود شيء معين ، ونفي وجوده هو فكرة غير صحيحة ، ان نستنتج بأن الشيء الموجود حقيقة لايتمتع بخصائص داخلية متناقضة »(٢) .

ان هذه النصوص بأجمعها ـ على رغم تأكيدها اللفظي للتناقضات الداخلية ـ تعني في واقعها شيئا واحدا هو الفعل والقوة أي وجود الشيء الفعلي ووجوده في المرحلة الثانية بالقوة ، ولكن الديالكتيك يخلطه بين الاثنين ـ جهلا أو

---

(١) المادية الديالكتيكية : ٢٦١ .
(٢) المصدر نفسه : ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

تجاهلا ـ لم يجد بدا من استعمال كلمة «التناقضات» لتبريـر المسألـة .

ولتوضيح ماقلناه نروي النص الديالكتيكي التالي :

«صحيح اننا لانخطىء اطلاقا عندما تقول مثلا : أن القطار المتحرك موجود في فتره معينه ، في نقطه معينه ، وفي فتره زمنيه اخرى في نقطه اخرى . هذا التأكيد كاف لفهم شيء بسيط كمكان وجود القطار . الا انه غير كاف للتعبير عن جوهر الحركة . ذلك التأكيد نصف نتيجة الحركة لا جوهر الحركة ذاتها . وعندما نحاول فهم الحركة نصطدم بالتناقض : فالجسم المتحرك موجود في برهة معينة ، في نقطة معينة من المكان ، ولكنه لم يعد في هذه النقطة ، أي موجود في هذا المكان المعين وفي غيره »(١) .

وهذا النص يوضح لنا التهافت الذي سقط فيه الديالكتيك عندما خلط بين الفعل والقوة ، «فالجسم المتحرك موجود في برهة معينة ، في نقطة معينة من المكان » وهذا صحيح . أما كونه «لم يعد في هذه النقطة» فليس في تلك البرهة المعينة نفسها وانما في برهة اخرى بعدها . لان الجسم المتحرك مادام متحركا فهو منتقل من نقطة الى نقطة ، ويكون في كل نقطة موجودا فيها بالفعل ثم منتقلا عنها الى غيرها ، وتتابع الحركة من نقطة الى نقطة لايعني انه «موجود في هذا المكان المعين وفي غيره » كما زعم هذا النص . فوجوده في اللحظة المعينة في المكان المعين قطعي وانتقاله عنه ولكن في لحظة اخرى قطعي ايضا ، لوجود القوة فيه على الانتقال واستمرار الحركة .

---

(١) المادية الديالكتيكية : ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

ولنقرأ ايضا نصا ديالكتيكيا آخر بهذا الصدد :

«لقد حاول نقاد الديالكتيك اكثر من مرة دحض هذا الطابع التناقضي للحركة . انهم يقولون : بان الجسم المتحرك موجود عمليا في فترة زمنية معينة في مكان معين ، وفي فترة اخرى في مكان آخر . اي انهم لم ياخذوا الا جانبا واحدا من الحركة «الانقطاع» ليجعلوه مطلقا ، فالمكان الذي عبره الجسم قسموه الى عدد من النقاط والقطع المنفصلة بعضها عن بعض، وقالوا بان الجسم المتحرك موجود اما في هذه النقطة من المكان أو في تلك » .

«أما في الواقع فالحركة ليست توقفا فقط ، بل واستمرارا ، والا لما أمكن انتقال الجسم المتحرك من نقطة الى أخرى . فنقاط المكان المنفصلة ليست مستقلة عن بعضها بعضا ـ انقطاع ـ ، بل ومرتبطة فيما بينها . وهذا الارتباط ليس غير استمرار المكان . فكل من الوضعين المتناقضين ، الانقطاع والاستمرار ، يفترض الآخر ويوجد فقط في وحدة معه . يقول لينين : ان الحركة هي وحدة الاستمرار الزمني والمكاني والانقطاع الزمني والمكاني . ان الحركة هي تناقض ، هي وحدة التناقضات» .

«ان القول بأن الجسم المتحرك يوجد ، في كل فترة معينة، فقط في نقطة معينة من المكان ، يميت الحركة ، وتتحول هذه الى عدد من حالات السكون . في حين ان الحركة في الواقع هي وحدة السكون والتبدل ، فلا شك ان الجسم المتحرك هو قائم في مكان معين ، وفي الوقت نفسه غير قائم فيه . هذان المتناقضان ـ سكون وحركة ـ مرتبطان فيما بينهما ، وينفي أحدهما الآخر»(١) .

---

(١) المادية الديالكتيكية : ٢٦٣ .

وخلاصة ما نفهمه من هذا النص هو التناقض الذي سقط فيــه الدياكتيك ولم يستطع التملص منــه .

انا لا نقول بأن الحركة توقف ، بــل نقول بــأن الحـــركة انتقال من مرحلة الى اخرى ، وهذا الانتقال ليس «انقطاعا» ، وانما هو ارتباط بيــن وجــود الشيء الآن في نقطــة معينـــة ووجوده بعد آن في نقطة أخرى ، وهو ما عبرنا عنه باســتمرار الفعل والقوة وارتباطهما وتشابكهما . ولــو كان الجســم المتحرك قائما في مكان معين وفي الوقت نفسه غيــر قائم فيــه ، أي فــي مكان آخر ، لمــا كانت هناك حركــة أبدا ، لأن وجـــود كـــل المراحل في وقت واحــد يجمد الحركة ويميتهــا ، بــل لايمكــن أن نقول بوجود الحركة الا اذا قلنا بوجــود المــادة في مرحلـــة معينة وامكــان انتقالها الى المرحلــة الاخرى ، وعندما يلتقــي الحــال والامكــان او الفعــل والقوة يمكــن للحــركة أن تؤدي دورها بالانتقال من درجة الى درجة .

ان الدياكتيك لم يجد تعبيرا يصلح للاســتعمال في هــذا السياق سوى جملــة «انتقال الجسم المتحرك» . والانتقــال معناه السير في طريق طويلة ينتقل فيهــا هذا الجسم من نقطــة الى اخــرى ، حيث يكون في الاولى بالفعل ثم ينتقل الى غيرهــا لما فيه منامكــان الانتقال وقوته ، وهذا هو الصحيح .

ولعل النص الديالكتيكي الآتي يوضح للقاريء ما نعنيـــه بقولنــا ، فهو يقــول :

«بما ان التطور عبــارة عن سلسلة من الاحداث ، فان كــل حلقة في هذه السلسلة هي نقطة انطلاق بالنسبة الى احـــد

الحوادث ، ونتيجـة بالنسبة الى حادث آخـر»(١) .

فقد عبر هذا النص عما قلناه أوضح تعبيـر ، وليس فيـه من مدلول سـوى تشابك الفعل والقـوة فقط بلا تناقضـات ولا صراع ، فـان كون «كل حلقـة في هذه السلسلة هـي نقطـة انطـلاق بالنسبة الى أحد الحوادث » معناه انها تحمـل امكانيـة الانتقال الى حلقـة أخرى ، وان كونها في نفس الوقت «نتيجـة بالنسبة الى حادث آخر » معناه وجودهـا الفعلي المتحقق ، ومـن هنا يكـون الأمـر عبارة عن اجتماع الفعل والقـوة لا اجتماع المتناقضـات .



(١) المصدر السابق : ٢٢١ .

- ٦ -

والغريب ان هؤلاء الماديين مع كل تأكيداتهم على ضرورة الحركـة ولا بديتها وملازمتهـا للمادة ، قـد ذهبوا الى القـول بوجود فترات من السكون تقف فيها المادة عن الحركـة .

ان كتـاب بحث «المادية الديالكتيكية» يقولون :

« لايمكن للمادة أن توجد الا في الحركة ، ولكن هذا لا ينفي امكان حدوث فترات من السكون والتوازن اثناء السير العـام المتواصل باستمرار للتبدلات المادية »(١) .

ويقول هؤلاء أيضا :

«لابـد من ملاحظة أن الحركـة من حيث جوهرها عبـارة عن تبدل ، ولكنـه تبدل يحتوي في ذاته على لحظـات عـدم

(١) الماديـة الديالكتيكيـة : ٩٣ .

تبدل ، واستقرار وثبات»(١) .

كما يقول هؤلاء أيضا :

«ان الحركة مطلقة ، من حيث الجوهر ، ولكنها نسبية ، من حيث شكل ظهورها الحسي»(٢) .

ويقول كتاب سوفييت آخرون :

«صحيح ان الاجسام قد تكون في حالة سكون ولكن السكون نفسه نسبي دائما ... » .

« فالحجر علي الطريق مثلا ساكن بالنسبة للارض . ولكن الحجر والارض يقومان معا بدورة كل يوم حول محور الارض »(٣) .

ويقول روجيه غارودي :

« السكون حالة خاصة من حالات الحركة »(٤) .

ويقول أيضا :

«ان جسما ما مثلا يمكن أن يوجد على سطح الارض في حالة توازن ميكانيكي ، أن يكون من وجهة النظر الميكانيكية في حالة سكون ، بيد أن ذلك لايمنعه من الاشتراك في حركة الارض ، وكذلك في حركة النظام الشمسي ... السكون

---

(١) المصدر نفسه : ١٠٣ .
(٢) المصدر نفسه أيضا : ١٠٣ .
(٣) الناس والعلم والمجتمع : ١٦ .
(٤) النظرية المادية : ٦٨ .

حالة خلصة من حالات الحركـة »(١) .

وما أدري كيف استطاع هؤلاء أن يجمعوا هـذه التناقضـات الغريبة في فكـرة واحدة ؟

كيف أصبحت الحركـة سكونا والسكون حركـة ؟

وكيف صارت الحركة في ذاتها لحظات استقرار ؟

وكيف أمكـن نسبة الحركة الى الشيء لانـه على الارض ـ والارض متحركة طبعا ـ ؟ وهـل يصح أن نسـمي النائـم متحركـا لان الارض التي ينام عليها تتحرك باستمرار ؟ بـل هل نجـد في العالم من يسمي الحجـر الملقى على الطـريق متحركا لان الارض تتحـرك ؟

وهكذا أصبح على المادي أن يؤمـن بالسكون ، وبفتـرات من الاستقرار والثبات وعدم التبدل في المادة مع ايمانـه بحتميـة الحـركة وبـأن «المادة لا تنفصل عن الحركة» وب « الوحـدة غير القابلة للانفصام بين المادة والحركة »(٢) .

ولو اردنـا ان نقول كلمـة الفصل في هذا الموضـوع لابـدنا ـ بكل حراره ـ ما ذهبت اليه الماديـة من الايمان بفترات مـن السكـون وعدم التبدل ومن عدم منافـاة ذلك للحـركة الجوهرية

(١) المصـدر نفسه : ٧٤ .

(٢) المصدر السابق : ٦٦ .

واذا كانت هذه الوحدة غير قابلة للانفصام فلماذا يقـول الديالكتيكيـون : «ان فصل المادة عن الحركة وهم يصعب التغلب عليه» (النظرية الماديه : ٧٤) . فان كان وهما حقا فان البرهان العلمي كفيل بالتغلب عليه ، وان كان مما لا يستطيع البرهان التغلب عليه فلا بد ان عكسه هو الوهم وليس الفصل كما يزعمـون .

في المادة ، باعتبار وجود امكانية الحركة فيها وفعلية السكون .
وحينذاك لايكون هناك أي تضاد او عجب او استغراب .
بل هذه الامكانية والفعلية هي الحقيقةالفلسفية التي لا مناص من القول بها والدعوة اليها واعتبارها الامر الواقع الذي لا واقع غيره .

ولنقرأ نصا ماديا آخر يعني بفكرة السكون عسى أن يزيد المسألة ايضاحا وجلاءا . يقول روجيه غارودي :

«في الحقيقة عندما يكون نقل الحركة معقدا ، وعندما تتضمن سلسلة من الواسطات ، نستطيع تأخير النقل بالمعنى الحقيقي الى لحظة نختارها . فعندما نحشو بندقية ، نحتفظ باللحظة التي سيحصل فيها الانفجار ، بانفراج النابض المؤتمر بالزناد ، أي نقل الحركة التي يطلقها احتراق البارود . وعندما سنحمل على اعتبار ان المادة كانت في حالة سكون ثم حركت بفعل ضغط الزناد . فاذا وسعنا هذا التمثيل الوهمي ، نتصور أن العالم كله في حالة سكون وان حركته تتعلق بدفعة أصلية . لكن هذا التوسع سخيف لاننا ننقل الى العالم على أنها مطلقة حالة هي نسبية بطبيعتها ، ولايمكن ، بالتالي ، أن يخضع لها سوى جزء من الطبيعة»(١) .

ان التعمق في قراءة هذا النص يكشف لنا التخبط الذي وقع فيه هذا الفيلسوف الكبير ! لتبرير ـ او تمرير ـ تلك الافكار التي يفرض عليه المبدأ ضرورة الايمان بها على كل حال .

وان من يقف على تأكيد حتمية الحركة في كلمات الماديين وارتباطها الذاتي بالمادة لايجد منهم استثناءا لمادة من غيرها او اقتصارا على حالة دون سواها ، فكيف ساغ لغارودي

(١) النظرية المادية : ٧٥ ـ ٧٦ .

ـ هنا ـ أن يعترف بأن «جزء من الطبيعة» ليس ذاتي الحركة وانما هو في استقرار وسكون لايخرج منه الا ب «دفعة أصلية» تطلق فيه الحركة .

ولن يهمنا في هذا المقام تصحيح او تخطئة ما ذكره من ان « التوسع سخيف » في المسألة . بل يكفينا الاعتراف من هذا المادي الخبير بأن هناك حالة ـ وان تكن نسبية وغير مطلقة ـ في الطبيعة والمادة بحاجة الى محرك ودافع .

وفي هذا ـ كما هو واضح ـ تحطيم للقاعدة الكلية المزعومة واقرار بكونها حالة جزئية لايصح تطبيقها على كل شيء .

ثم يقول غارودي في مكان آخر من كتابه :

«لا نستطيع أن ندرك بوضوح مفهوم الحركة الا بطرد اشباح القوى المزعومة (الميكانيكية ، الحرارية ، الكيميائية ، الكهربائية ، المغناطيسية ، البيولوجية ، الخ) ، فكل قوة من هذه القوى المزعومة ليست ، كما سنرى ، سوى حثالة للنزعة التشبيهية الغيبية »(١) .

ولا ندري ـ في هذه الحالة ـ كيف تصبح هذه الحركة المزعومة وكيف نستطيع ادراك مفهومها ومعناها ؟

واذا لم تكن الحركة قوة ميكانيكية ولا حرارية ولا كيميائية ولا كهربائية ولا مغناطيسية ولا بيولوجية ولا أية قوة أخرى فما هي اذن ؟

وما أدري كيف أصبحت هذه القوى « مزعومة » و «حثالة للنزعة الغيبية» ، في حين أن العلم كله ـ بحقائقه وبفرضياته ـ عبارة عن هذه القوى بالذات وان كل الطاقات

---

(١) المصدر نفسه : ٧٩ .

العلمية المذونة انما تتجه نحو مزيد من المعرفة بهذه القوى المذكورة .

نعم . ربما يريد غارودي من نفي هذه القوى أن يقول : ان الحركة ليست الا الخروج من عالم الامكان الى عالم الوقوع مرحلة بعد مرحلة ، على الشكل الذي شرحته كلمات بعض المفكرين المسلمين ــ كما مر ــ وليس لذلك أي شبه بأية قوة من تلك القوى المشار اليها ، لان المسألة تصبح فلسفية محضة لا يصح تشبيهها بهذه الامور .

اذا كان هذا هو مراد غارودي فهو الصحيح ، ولكنه لم يحسن التعبير عنه او لم يرد الافصاح الكامل .

وان لم يكن هذا هو المراد ، فما قاله عبارة عن ضرب مجهول في مجهول .

وخلاصة القول :

ان الحركة في كتابات الماديين لم يتضح لها مفهوم محدد أبدا . فهي تارة أزلية أزلية المادة ، وهي تارة وسيلة وجود المادة ــ أي أسبق من المادة ــ ، وهي تارة ثالثة ملازمة للمادة(١) ــ أي غير ذاتية لها ــ .

والحركة بعد ذلك ــ كما يقولون ــ لاتنفك عن المادة

(١) المادية الديالكتيكية : ٩٠ .

ابدا لان «كل شيء يتحـرك ويتبدل في هذا العالم»(١) . ومـع ذلك وعلـى الرغـم من الـ «كـل شيء» و «لا تنفـك» فـان هنالك فترات سـكون ولحظات استقـرار وعدم تبـدل .

فأقـرأ وتعجـب !



(١) المصـدر نفسـه : ٩٠

- ٧ -

وهنا يحين وقت ايراد السؤال المهم والاساس في المسألة :

اذا كان وجودالطبيعة هو حركتهـا ، وكانت هذه الحـركة هي نفس الخروج من القوة الى الفعل ـ كما بينا ـ وليسـت شيئا آخر ، فان هذه الحـركة بحاجة الى مصـدر لوجـودها . ولابد للبحـث العلمي أن يعين المصـدر او السبب الذي أوجـد الحركة التي هي بدورهـا وسيلة وجود المادة كما يقول الماديون ، والذي جعل من امكان الانتقال من مرحلة الىمرحلـة أمـرا واقعـا بالفعـل ؟

تجيب المادية علىهذا السؤال : بـأن الحركة ذاتية للمادة فلا تحتاج الـى سبب ، لانـه « لا توجد مادة ولا يمكن ان توجـد من دون حركـة . والمادة لا تنفصل عـن الحركـة »(١) . أي

---

(١) الماديــة الديالكتيكيــة : ٩١ .

«ان مفهوم الحركة الذاتية يعني ان الاشياء والظواهر تحوي في نفسها دوافع او مصادر هذا التطور»(١) . وترى المادية «ان الطبيعة غير الحية خلقت ـ عن طريق الحركة الذاتية ـ الشيء المغاير لها ـ نقيضها ـ أي الطبيعة الحية .. أما أسباب أو مصادر هذه الحركة الذاتية والتحول ، فهي التناقضات الداخلية »(٢) ، و «ان التناقض الداخلي هو تناقض في جوهر الشيء بالذات بحيث ان الشيء لايمكن أن يوجد بدون هذين الضدين»(٣) .

ويقول كتاب سوفييت في هذا الصدد :

«من الطبيعي ، عندما تشاهد الحركة في الطبيعة والمجتمع أن تطرح هذا السؤال : ماهو مصدرها ؟ وتتبادر الى الذهن أبسط فكرة عن الدفعة التي تنقل الحركة من شيء الى شيء ولكن لابد عندئذ من افتراض فكرة الدفعة الاولى التي كانت بداية الحركة . وينتج من ذلك ان المادة كانت في البدء ميتة ثم ظهرت قوة ما من وراء الطبيعة ودفعتها وبالضرورة تؤدي فكرة الدفعة كمصدر عام للحركة ، الى الفكرة الدينية عن خلق العالم » .

«ان الدفعات الخارجية موجودة في الطبيعة ولكنها تفعل غير ان تنقل الحركة من جسم الى آخر ، دون أن تكون هي مصدرها . واذن فان مصدر الحركة يجب البحث عنه في داخل الظواهر المادية » وهو التناقض وصراع

---

(١) المصدر نفسه : ٢٧٢ .
(٢) المصدر السابق : ٢٧٢ .
(٣) المصدر نفسه أيضا : ٢٧٤ .

أضـــداد(١) .

ويقول كتــاب سوفييت آخــرون في الجــواب على هذا السـؤال :

«يقال أحيانا : نسلم جـدلا بأن المـادة وجـدت منـذ الأزل . ولكن حتى في هــذه الحـــالة ، هناك الكثير الذي لا تستطيع المادية أن تفسره ، مثال ذلـك ، مـن أين نشـأت حركتهـا ، يقال في هذه الحـالات ، لنتصور عصرا بعيـدا بشكل لا نهائي ، وجد فيه بدلا من الكون الحالي مادة مـا لا شـكل لها ولا حركـة . وقد وجدت على هذه الحالـة لوقت طويـل الى ما لا نهايـة . ولكن حلت اللحظـة التي تعين فيهـا على المادة أن تخـرج من هذه الحالة التي وجدت فيها حتى ذلك الوقت . ولكـن اذا كانت المادة قد ظلت حتى ذلك الوقت بـلا حركـة فما الذي جعلها فجأة تتحـرك »(٢) .

ويتساءل هؤلاء الماديون قائلين :

«ولكن هل تحتاج المادة في الواقـع الى قـوة عليا ، حتـى تحصل على هذه الدفعـة ؟ هل يمكن في الواقـع أن تكتسـب المادة الحركـة من الخـارج فقط » ؟

وأجـاب هؤلاء الماديـون على تساؤلهم :

«توجد في الطبيعة أنـواع مختلفة من الحـركة . فهناك أولا

---

(١) الناس والعلم والمجتمـع : ١٧ ــ ١٨ .
(٢) أسس المادية : ٢١ .

انتقال جسيمات المادة او الاجسام من مكان الى آخر أي الشكل الميكانيكي للحركة . ثانيا ، العمليات الحرارية والكهربائية أي الشكل الفيزياوي للحركة . ثالثا ، التفاعلات الكيميائية وتركيب الايونات وهو الشكل الكيميائي من الحركة . رابعا ، التغيرات التي تجري في الكائنات الحية او الشكل البيولوجي . خامسا ، الشكل الاجتماعي من الحركة اي التغيرات التي تجري في الحياة الاجتماعية »(١) .

«والآن نستطيع أن نجيب على السؤال المطروح أعلاه . هل كان يمكن أن توجد المادة في وضع لا يحدث فيها أي تغيرات ؟ كلا بالطبع . وحتى في العصر البعيد الذي لم يكن يوجد فيه بعد في العالم انسان ولا حيوانات ولا خلية حية حتى في هذا الوقت كانت تتم التغيرات في المادة . وفي واقع الامر ان الاجسام تتكون من ذرات وجزيئات وهي تتحرك باستمرار . وبالتالي لم يوجد ابدا جسم واحد متجمد لايتحرك بشكل مطلق . ثم انه اذا وجدت الذرات والجزيئات والالكترونات فما كان يتم الامر دون تفاعلات كيميائية . ينتج من ذلك ان الشكل الكيميائي لحركة المادة ايضا كان موجودا ، وبذلك فلم توجد حالة أبدا وجدت فيها المادة بلا حركة »(٢) .

وحينئذ « لا داعي لوضع السؤال التالي : من أين حصلت المادة على هذه الحركة ، لانها موجودة منذ الازل . ولهذا لا داعي للسؤال الذي يقول : من الذي أكسب المادة الحركة ما دامت لا تنفصل عنها وتعتبر شكلا من اشكال

(١) أسس المادية : ٣٣ .
(٢) المصدر السابق : ٣٣-٣٤ .

جودهـــا »(١) .

ولا نريـد ـ هنا ـ ان نعلـق على التضـارب الذي يحملـه ذا النص الاخير مع النصوص المـادية التـي سلف منـا البحث بها قبل صفحـات ، حيث نفى النص وجـود حالة تجـردت فيها ادة عـن الحركة خلافـا لتلك النصوص التي أكدت فتـرات سكون ولحظـات الاستقرار ، وحيث جعـل النص الاخيـر ك الحـركة ذات شكل ميكانيكـي أو فيزيائـي أو كيميـــائي بيولوجـي أو اجتماعـي خلافا لنصوص سابقـة اعتبرت هــذه قـوى «مزعومـة» و «حثالة للنزعة الغيبية» .

لانريـد التعليق على هذه الجوانب ، ولكننا نتساءل : هـل ذه الجوابات التي شحن بها الماديون كتاباتهم صحيحة ومقبولة ؟

وستتضح لنـا حقيقـة الصواب أو الخطـأ في هذه الاجوبة بعد عرض الملاحظـات الآتيـة :

١ ـ ان المستفاد من الدراسات الفيزيائية الحديثة ونتائج بحث العلمي المعاصر ان المـادة في أصلهـا البعيد حقيقـة واحدة تعدد فيهـا ولا تنوع ، وهي التي يعبـر عنهـــا في بعضـ نصوص الماديـة بـ «المادة المسحوقة»(٢) ، وان جميع الخـواص الصفات التي تتميز بهـا المركبات الماديـة والعناصر البسيطة انما ي صفات طارئـة عرضت على المادة الاصليـة فجعلت من كـل احـد منهـا شيئا متميـزا عن غيره .

واذا كانت المادة الاصلية حقيقة واحدة فكيف يمكـن ان نسب لهـا أو لحركتها سببية هذا التنوع والاختلاف في التراكيب

---

(١) المصدر نفسه : ٣٤ .
(٢) النظرية المادية : ١١٢ .

والحـــركات .

واذا قلنا بأن الحقيقة الواحدة قد تتناقض وتختلف وتتنو
في حركاتها واحكامهــا فمعنى ذلك تجميــد جميع الحقائق العلميـ
والغاء كل قوانين العلوم الطبيعية ، لان الافراد التي يحكمهــ
قانون واحــد قد تتناقض او تختلف ـ نتيجــة لحركتها الذاتيـ
المدعاة ـ وبهذا يتبخر القانــون ويفقد قيمته ومجاله العلمي .

واذن . فلا بد من ان يكون المنــوع لافــراد هذه الحقيقـ
الواحــدة ، والمعدد لتراكيبهــا وحركاتهــا ، شيئا فــوق المــا
وفوق الحركــة ترجع اليه كــل هذه الاختلافــات والتراكيـ
الماديـــة .

٢ ـ اذا كانت حركة المادة هي السبب في وجــود الاشيـ
وتطورهــا من مرحلة الى اخرى ، وكانت الحركة ذاتيــة للما
و «ليسـت حالــة عرضيــة »(١) ، فلمــاذا تتطور ذرات معينــا
من عنصر مــا وتبقى ذرات اخــرى منه على حالها الاولى ، وه
هناك في داخل الحركة قوة عاقلــة مدركــة تقوم بتقسيم العنـ
الى قسمين ، فتجمــد قسما منــه في مرحلتــه الاولى وتطو
قسما آخر الى مرحلة ثانية ، ثم تقسم العنصر في مرحلتــه الثا
كذلك فتجمد قسما منه وتطور آخــر .. وهكذا .

ان وجود كمية من المادة المسماة «يورانيــوم» ـ وهو قمـ
التطور المادي ـ مع بقاء كميات هائلة اخرى من المــادة لم تنـ
شرف هذه الدرجة منالتطــور ، دليل على ان سبب الحــر
والتطور ليس ذاتيــا للمادة ، وانمــا هو فوقهــا وخــارج عـ
حدودها ، يكون هو المحرك والمصنف والمقسم لها في كل مراحـ
الســارية مع الزمــان .

---

(١) الماديــة الديالكتيكيــة : ٩٠

٣ ـ ان الماديين الديالكتيكيين يعترفون ـ كغيرهم ـ أن المادة ليست «شيئا وحيد الصورة ومن نوعية واحدة . إنها تبرز في أجسام متباينة لا حصر لتباينها ... وهذه الانواع المتباينة للمادة تتميز بالتعقيد الى هذا الحد او ذاك ، وهي مواضيع بحث مختلف العلوم من الفيزياء الى الكيمياء البيولوجيا .. الخ . أما الانواع البسيطة نسبيا منها فهي الصغيريات الاولية : كالفوتون ، والالكترون ، والبوزيترون ، البروتون ، والميزون ، والانتي بروتون ، والنترون ، الفترون ، والانتي نترون .. الخ . أما التعقيد الواسع فهو من نصيب الذرات والجزيئات ، ثم تليها في التعقيد الغازات السوائل والاجسام الصلبة ... وكذلك الاجرام السماوية المختلفة كالكواكب والنجوم والمجموعات النجمية . وتتميز أجسام الطبيعة العضوية ... بدرجة عالية من التعقيد »(١) .

كما انهم يقولون :

«يحيط بنا عدد لاحصر له من الكائنات المتباينة أعظم تباين في خصائصها بعضها يحشر في عداد الكائنات الحية . بعضها لا يتوفر فيه أي دليل على الحياة . بعضها قاس بعضها طري أو سائل . بعضها متناه في الصغر وخفيف بعضها ذو أجسام هائلة وثقيلة جدا . بعض الاجسام مشحونة بالكهرباء وبعضها غير مشحون بها ... الخ كل هذا بمجموعه يشكل ما يدعى بالطبيعة »(٢) .

واذا كانت المادة على هذه الشاكلة من التباين العجيب

---

(١) المادية الديالكتيكية : ٨٩ .
(٢) المصدر نفسه : ٧٤ .

المعقـــد فهل تكون « الحركـة الذاتيــة » المـدعاة هي السب
في كل هذه التنوعــات ؟

طبعا : لا .

بل لا بد ان يكون لذلك سبب فـوق المادة تعود اليــه كـ
اختلافات المادة وتنوعات عناصرهـــا وذراتهـا المتباينة .

* * *

وهكذا يتضح لنا من هذه الملاحظات ـ على اختصارهـا
انه ليس من الممكن القول بأن المادة متحركة بذاتها وان هـــا
المادة المتحـــركة هي بنفســها ســبب تنوعها واختلافها . وان
لابــد من القول بأن في المادة الاولى قابلية الحركـة وامكانهـا
فقط وان سبب فعليــة الحركـة وسبب التنوع والتصنيف في
شيء فوقهـا وليس منهـا مطلقـا .

- ٨ -

ومن هنا ننطلق ـ وبعد بطـلان فكرة ذاتيـة الحركـة ـ لى البحث الجاد عن السبب والعلـة :

وقد سبق منا القول إن العلية والسببية من القواعـد العقلية لبديهية التي لا غنى عنها في تعليل وجود الاشياء ، وحتى لـو حدث الشيء ولم يعرف السبب فانه يقـال بأن السبب مجهـول لا يصـح أنـه وجـد مـن دون سبب ، لان عـدم اكتشـاف لسبب والعلـة في وجود شـيء مـا لا يصح ان يكون حافـزا نكار فكرة العلية ، بل ان انكار السـببية والعلية ـ وهمـا ساس كـل النظريات العلمية ـ يؤدي بنـا الى رفـع اليد عن كل لك النظريات والقواعـد مهما جلت وعظمت .

وليس القول بالسببية مقتصرا على ذوي المنهج العقـلي



وحدهم ، بل ان كل العاملين في الحقول العلمية مؤمنون بذلك كل الايمان ومسلمون به كل التسليم . وحسبنا ـ نموذجا لهذا الايمان والتسليم ـ أن نقرأ ماكتبه عالم الفسلجة المشهور الدكتور ايفي عن موقف العلم من « السببية » فقال في أثناء ذلك :

«ان رجل العلوم ... يجري بحوثه على أساس مبدأ السببية، مبدأ السبب والنتيجة ، على أساس وحدة الكون وما يسوده من القانون والنظام . وهو كأي انسان آخر يتخذ كل قرار ويفكر في كل أمر على أساس الايمان بمبدأ السببية»

ثم يقول بعد ذلك :

«ان احدا لا يستطيع أن يثبت خطأ قانون السببية ، فبدونه تنعدم جميع الاشياء الحية . والعقل البشري لايستطيع أن يعمل الا على اساس السببية »(١) .

بل ان الديالكتيكيين أيضا لم يجدوا بدا من الاقرار بالسببية والعلية ، وفي ذلك يقولون :

«ان العلاقات السببية للظواهر تتسم بطابع الشمول والعموم. فكل ظواهر العالم وكل التبدلات تنشأ في أعقاب تأثير السبب ولا وجود لظواهر من دون أسباب ... وقد لانعلم حتى الآن أسباب بعض الظواهر الا ان هذه الاسباب موجودة موضوعيا . فالطب مثلا لم يتمكن بعد من معرفة سبب

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم : ١٥١ ـ ١٥٢ .

الامراض السرطانية ، الا ان هذا السبب قائم »(١) .

ويقول الديالكتيكيون في الدفــاع عن السببية :

« ان الواقع القائم على ان وجود الاســباب لا ينتج دائمــا النتائج المتوقعــة ، لايدحض السببية الموضوعية ، بــل علــى العكس يؤكدها ، فالضغط على زناد البندقية لا يؤدي دائمـــا الى اطلاق النار ، لكن هذا الحــادث لا يطعن في موضوعيـــة السببية ، بل ينبهنا الى وجود سبب آخــر كرطوبــة البــارود أو عطــل الكبسولة »(٢) .

ويقولون ايضا :

«العلوم جميعها ، عندما تدرس الظواهر ، تحاول كشف أسباب نشوئهــا وتطورها والتغيرات التي تطرأ عليها ثم معرفتها . فمعرفة الظواهر والعمليات هي ، قبل كل شيء ، معرفـــة أســباب نشوئها وتطورها »(٣) .

والغريب في كل ذلك ان هؤلاء المــاديين مــع صراحتـــهم الجليــة الواضحة في ضرورة وجــود السبب وترتــب المسببات على ذلك قد وقعوا في الالتباس العجيــب بيــن السبب والنتيجــة حتى قال بعضهمما نصــه :

«ان التأثير المتبادل بين السبب والنتيجة يعني تأثير احدهمــا على الآخــر تأثيرا متواصــلا ، مما يؤدي الــى حــدوث تبدل فــي السبب والنتيجــة » .

---

(١) المادية الديالكتيكية : ١٨٨ .
(٢) المصدر نفسه : ١٩٠ .
(٣) المصدر نفسه ايضا : ١٨٦ .

« لقد تمكنت المادية الديالكتيكية من التغلب على المفهوم الميتافيزيكي الضيق للسببية فأظهرت ان الرابطة بين السبب والنتيجة تحمل طابع التأثير المتبادل . فليس السبب فقط هو الذي يؤثر على النتيجة مولدا اياها ، بل ان النتيجة ايضا تؤثر على السبب تأثيرا فعالا وتبدله . وفي عملية التأثير المتبادل يتبادل السبب والنتيجة مكانيهما . فالامر الذي نعتبره الآن ، أو هنا ، سببا ، يصبح ، هناك ، أو في وقت آخر ، نتيجة، والعكس صحيح »(١) .

ولعل نظرة سريعة يلقيها القاريء على هذا النص ترجع اليه بكشف نقاط الالتباس الحاصل في هذه الحلقة .

ان معنى مايقولون من التأثير المتبادل بين السبب والنتيجة يمكن تجسيده للقاريء بمثال هو : ان (أ) سبب في وجود (ب) حيث يكون (ب) نتيجة لـ (أ) الذي هو السبب ، ومع ذلك فان (ب) سبب في وجود (أ) حيث يكون (أ) نتيجة لـ (ب) الذي هو السبب .

انهم هكذا يقولون ، فهل هو معقول ؟

كلا وألف كلا ...

ولذلك فان المسألة بحاجة الى تحديد دقيق قائم على تثبيت سائر الشروط والظروف المعينة لكل سبب ولكل نتيجة ليتضح المقصود بشكله المعقول .

وكمثال على ما نعنيه نفرض : ان سدا معينا ولنسمه السد رقم (١) كان سببا في تطور الزراعة في بلد ما حيث

---

(١) المادية الديالكتيكية : ١٩٦ .

يكون التطور الزراعي في ذلك البلد نتيجة لذلك السد . وان تطور الزراعة هذا ـ وهو نتيجة السد رقم (١) ـ سيكون سببا في تحسن الاوضاع الاقتصادية في ذلك البلد فيؤدي ذلك الى انشاء السد رقم (٢) فيكون هذا السد الثاني نتيجة للتطور الزراعي .

فهل معنى ذلك ان السبب والنتيجة قد تبادلا مكانيهما كما يقول النص السابق .

لا .

انما السد الاول سبب في شيء هو التطور الزراعي .

فيكون السد سببا والتطور نتيجة .

ثم كان التطور سببا في شيء هو بناء السد الثاني . فيكون التطور سببا والسد نتيجة .

ولكن السبب الاول هو السد الاول ، والنتيجة في الفرض الثاني هو السد الثاني .

ولذلك لم يتبادل السبب والنتيجة مكانيهما كما يتخيل النص الديالكتيكي السالف الذكر .

ومهما يكن من أمر :

فاذا كانت السببية أمرا واقعا و «لا وجود لظواهر من دون أسباب » ، واذا كانت كل حركة بحاجة الى علة وسبب لضرورة وجود سبب لاي موجود ، فان تسلسل العلل والاسباب في الوجود يجب ان ينتهي الى سبب لا سبب لوجوده ، لبطلان فكرة التسلسل الذي لا ينتهي ، وبهذا نصل الى القول بضرورة وجود العلة الاولى التي لا علة لها .

ولابد ان يكون هذا السبب خارج الاطار المادي للطبيعة والحركة ، بل لا يمكن الا ان يكون سبب الحركة خارجا عنها لان المحرك غير المتحرك قطعا ولان الشيء لا يكون علة لنفسه .

وتصبح خلاصة ذلك في جملة واحدة : ان سبب الحركة يجب ان يكون خارج حدود الطبيعة واطارها الكبير واليه تنتهي سلسلة الاسباب والمسببات في كوننا العظيم .

وهذا أمر واضح لا يحتاج الى كثير بيان .

وعندما يتجلى أمام القارىء ما سلف بيانه لا يبقى أي مجال لسؤال المشككين عندما يقولون : ولماذا لا نفترض ان المادة الاولى غير معلولة الوجود .

فقد ثبت ان صانع المادة الخام « أي العلة الفاعلة للشيء » يجب ان يكون غير المادة الخام نفسها «العلة المادية للشيء » وان الحركة ـ كما مر ـ بحاجة الى محرك ينقل الشيء من مرحلة الامكان والقوة الى مرحلة الفعل والوجود ، وان تسلسل العلل والاسباب يجب ان يصل الى نهاية محددة . وهذا كله مما ساقنا اليه البحث والدليل وعرفنا بضرورته وحتميته ، وجعلنا ـ تبعا لذلك ـ ندرك مدى الصعوبة التي يعانيها بعض الماديين في محاولة الخروج من هذا المأزق بالاعتراف بالجهل الكامل في فهم المسألة اذ يقول : « عندما تسألني : وما علة وجود المادة الاولى ؟ فان أقصى ما أستطيع الاجابة به : لا أعرف الا أنها غير معلولة الوجود » !!

- ٩ -

وحيث قد ثبت ــ مما مر ــ ان المادة معلولة الوجود فلا بد ان يكون لها مصدر أول غير معلول هو واجب الوجود وضروري الوجود ، كما لا بد ان يكون هذا المصدر الاول عاقلا وواعيا وحكيما ، وتلك صفات لايمكن تحققها في المادة العمياء العشواء الصماء المتخبطة ، كما صرح بذلك الماديون الديالكتيكيون وغيرهم عندما قالوا :

«ان الطبيعة لاتضع أهدافا»(١) وصرحوا : «في الطبيعة حيث تعمل قوى عمياء عفوية»(٢) .

«ان الطريقة العلمية تقوم على أساس انتظام الظواهر

---

(١) المادية الديالكتيكية : ٢٠٨ .
(٢) المصدر نفسه : ٢٧٨ .

على التنبؤ بها ـ وهما الاساسان اللذان تقوم عليهما الطريقة العلمية ـ هما في الوقت ذاته أساس الايمان »(١) .

ان نقول بكل دقة ان هذا الانتظام في ظواهر الكون والقدرة الطبيعية والقدرة على التنبؤ بها في ظل هذا الانتظام ، ونستطيع

ولا يمكننا ازاء هذه الطبيعة العمياء العفوية وحركتها العشوائية ان نتنبأ بنتائجها أو بأي شيء يرتبط بها ما لم يكن هناك ايمان باستناد كل ذلك الى مهيمن أكبر هو الخالق والموجد والمصمم والواضع لكل القوانين القائمة على الانتظام الدقيق ، ذلك الانتظام الباعث على القدرة على التنبؤ بها بشكل يقنع العالم والباحث .

والغريب ان الماديين الديالكتيكيين مع تصريحهم بالقوى العمياء العفوية العاملة في الطبيعة كما مر فانهم يقولون : «ان العلاقات بين مختلف ظواهر العالم ليست من وضع وعي الانسان ، وانما هي موجودة موضوعيا أي مستقلة عن الوعي ولذا فان الماديين يعترفون بالقوانين الموضوعية التي تخضع لها كل الظواهر والعمليات في العالم المحيط بنا»(٢) .

فكيف يمكن الجمع بين الايمان بالقوى العمياء العفوية في الطبيعة وبين انتظام الظواهر وخضوع كل العمليات في العالم المحيط بنا للقوانين الموضوعية المنظمة ؟

«ان غائية تنظيم الطبيعة ، وما يتصف به هذا التنظيم من عقلانية ، انما هما شاهدان على عقلانية السبب الذي أوجدها ، أي شاهدان على وجود كائن مفكر عاقل هو الاله » .

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم : ٣٣ .

ولكن المادية الديالكتيكية مع اعترافها بصحة هذه « الغائية » في « تلاؤم النبات والحيوان مع الوسط المحيط ، والاعضاء مع بعضها » لاترى كل ذلك «أكثر من التلاؤم مع الوسط ، وهذا التلاؤم نتيجة مقنونة لتأثير العوامل الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية »(١) .

وهذه احدى المغالطاتالكبرى في المادية الديالكتيكية .

ف «النتيجة المقنونة» المشار اليها ، من وضع قانونها ؟ ومن صنف أنواعها ونوع تراكيبها ونظم عملها ؟ وهل يكون بمقدرة الحركة المادية العمياء ان تصنع هذه القوانين بهذه الدقة العظيمة والترتيب العجيب ؟

فان كان ذلك عن صدفة فلنا الف دليل ودليل على عدم امكان الصدفة ، «ولا يمكننا ان نقيم مبادىء عامة للوصول الى آراء مدروسة على أساس الصدفة» على حد تعبير أحد الماديين .

وان كان ذلك بسبب قوة واعية مدركة فتلك هي الكائن الاول الذي تنتهي اليه سلسلة العلل والاسباب في الكون ، ويطلق عليه الفكر الديني اسم «الاله» .

وهكذا نجد ان الفكر الديني هو الذي يؤمن ايمانا حقا بالعلاقة القانونية بين الموجودات وبمتانة هذه العلاقة ، باعتبار ايمانه بالخالق الواحد الذي انطلق منه كل شيء . فوحدة العالم وعلاقاته القانونية انما هي فرع وحدة الموجد وكونه مصمما

---

(١) المادية الديالكتيكية : ٢٠٨ .

واعيا منزها عن العمى والعشوائية ، ولو كان الموجـــد الاول « مادة » غير واعية ولا مدركة لما أمكن الايمـان بهذه العلاقــة لامكان وقوع الارتباك والخلل والفوضى في هذه العـــلاقات ، لان « الشيء » العشوائي لاينتج نتيجـة مقننة ومضبوطـة فـي كل حين وعلى الدوام .

ومن هنا نجـد مقدار البعد عن الدقة في النص المادي الذي يقـول :

« كان من غير الممكن من مواقـع الطريقـة الميتافيزيكيـة التي تعالج الطبيعـة كمجموعة من الاشياء الجامدة غير المتبدلة ، تفسير وحـدة العالم والعلاقة القانونية »(١) .

والصحيح ان الطـريقة الميتافيزيكيـة ـ وحدهـا فقط ـ هي التي تفسر وحدة العالم والعلاقـة القانونيـة ، دون غيرها من الافكـار والطرق .

(١) المصدر نفسه : ٦١ .



- ١٠ -

ونعود مرة اخرى الى ما سلف بحثه لنقول :

اذا كانت المادة في أصلها البعيد حقيقة واحدة لاتنوع فيها ولا تعدد ، واذا كانت الحركة عبارة عن خروج الشيء من عالم الامكان الى عالم الوقوع ، فكيف انطلقت الحياة ؟ وكيف استطاعت « المادة المسحوقة » أن تصنع الخلية الاولى ؟ وكيف أمكن أن تخرج امكانية حركة المادة الى عالم الفعل لتنطلق تلك الخلية معلنة ولادة مرحلة كونية جديدة ؟

ان الحقيقة التي انتهى اليها العلم خلال بحثه الطويل « ان أصل الحياة على الارض لغز مغلق ، حتى ان أدوارها الاولى غير معروفة البتة » على حد تعبير الاستاذة دوروثي ديفدسن[١] .

---

(١) الانسان في فجر حياته : ٣ .

ومع ذلك فقد اعطانا روجيه غارودي رأيه في المسألـة على الشكل الاتي :

« لقـد وجدت الارض حتى قبـل كل كائـن موهـوب الحساسية ، قبل كل كائن حي . وان أية مادة عضويـة لم تكـن تستطيع الحياة على كرتهـا الارضية في المراحل الاولى مـن وجودهـا . فالمادة غير العضوية قد سبقت ـ اذن ـ الحياة » .
«ان العلوم تقودنا اذن الى هذا التأكيـد بأن العالم قدوجـد في حـالات لم يكـن من الممكـن معهـا أن يوجد أي شـكل مـن أشـكال الحياة او الحساسية »(١) .

ويقول غارودي :

«يعلمنا علم طبقات الارض الجيولوجيا وعلم المستحاثـات ان الحياة قـد ظهرت على الارض منذ ملايين السنين . فقـد وجب اولا أن تتحقق الشروط الاوليـة : قشرة أرضية صلبة ، درجـة حرارية أتاحت للاحين ـ الالبومين ـ الا يتحلل ، ثـم تكثف الماء الجـوي الذي ولد المحيطات والبحـار والانهـار التي تستطيع أن تنمو فيها الحياة بأبسـط أشكالهـا ، لان المـاء يشكل من زمن جد بعيد المركب الرئيسي للمادة الحية »(٢) .

ويؤسفنا وقد قرأنا النص السالف الذكـر أن يكـون غارودي غـير مطلع على قرآننا الكريم وتراثنـا الديني العظيم ليرى بأم عينيه هذه الحقائق مسجلة في الفكر الديني الاصيـل قبل أن يعلمنـا علم طبقات الارض وعلم المستحاثات ذلك .

---

(١) النظريـة الماديـة في المعرفـة : ٦ ـ ٧ .
(٢) المصدر نفسه : ١٢٥ .

فظهور الحياة منذ ملايين السنين ، أو قرابة مائة مليون سنة على وجه التحديد قد ورد في تراثنا الديني منذ أربعة عشر قرنا من الزمان(١) .

وكون الماء هو المركب الرئيسي للمادة الحية قد نص عليه قرآننا الكريم بقوله تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) أي ان كل شيء ذي حياة انما هو مخلوق من الماء .

واذا وجدنا عذرا لغارودي وأمثاله في عدم اطلاعهم على التراث الفكري الاسلامي فهل لهؤلاء المثقفين من أبناء المسلمين عذر في عدم اطلاعهم على هذا التراث ؟ وفي نقل ما يكتبه اولئك حرفيا ، وهم يجهلون كنوزهم التي تركوها وراء ظهورهم على ما ضمت من نفاسة وشأن لا يعرفهما الا من له حظ كبير . ونعود الى صلب الموضوع .

ان غارودي يلخص جميع الفرضيات الممكنة ـ في رأيه ـ عن أصل الحياة فيقول :

«اما أنيكون للحياة وجود ازلي ، او ان المادة الحية تشكلت انطلاقا من المادة غير الحية »(٢) .

ثم يبحث في الاحتمال الاول فيقول خلال ذلك :

«ان علوما لطبيعة قد جاءت خلال السنوات الاخيرة بمستندات تجريبية حاسمة ... ففي فضاء ما بين الكواكب

---

(١) البحار : ٥٧/٣٣٠ـ٣٣١ .
(٢) النظرية المادية في المعرفة : ١٢٦ .

توجد شروط تجعل من المستحيل ... تشرد بذور الحياة . ذلك أن الاشعة فوق البنفسجية والاشعة الكهرطيسية تقتل الاجهزة العضوية المجهرية ، واتضح ان الاشعة الكونية اشد تحطيما أيضا ، مما يستبعد نهائيا نظرية المنوية الكونية ، وحتى نقل البذور الحية من كوكب الى آخر » .

وتكون النتيجة :

«ان فرضية أزلية الحياة تجد نفسها في تناقض مطلق مع خصائص البروتينات الحية »(١) .

«بقيت اذن الفرضية الثانية : فرضية تشكل المادة الحية انطلاقا من المادة غير الحية ... فهنا لا نصطدم بتناقضات ، وانما نصطدم فقط بحدود موقتة لامكاناتنا التجريبية » على حد تعبير الفيلسوف غارودي(٢) .

فهل هذه الفرضية تستند الى برهان مقنع ؟

يقول أصحابها ومؤيدوها :

«ان الكاربون يشكل العنصر الاساسي لكل مادة عضوية ... ويعلمنا المنظار الطيفي ان الكاربون يوجد في جميع النجوم بلا استثناء ، لكن بأشكال مختلفة تبعا لدرجة نمو كل نجمة ... والنيازك التي يماثل تركيبها تركيب أعمق المناطق من القشرة الارضية والنواة المركزية من كوكبنا غنية

---

(١) المصدر السابق : ١٢٧ .
(٢) ألمصدر نفسه : ١٢٨ .

بالمعلومات ... والكاربون حاضر دوما في هذه النيازك ، سواء بحالته البكر (غرافيت ، الماس) أو متحدا بمعادن أخرى بشكل فحوم مثناة (كاربور) وبالهيدروجين بشكل هيدروكاربون ... وان النواة المركزية من الكرة الارضية ... كان لها على مايبدو تركيب مماثل . فخلال التبرد ، توضعت حول هذه النواة المركزية ، طبقات أخرى من الاتحادات القابلة للتكثف بصعوبة أكبر ... وعندما انخفضت درجة الحرارة الى حد تكثفت معه أبخرة الماء الجوي وشكلت المحيط الاولي على كوكبنا ، انحل الكاربون ومشتقاته في مياه هذا المحيط » .

«هذه الاتحادات يمكن ان تحدث في شروط بسيطة جدا : لنأخذ محلولا مائيا من هذه المواد ونتركه يستريح بدرجة الحرارة المحيطة مع كمية صغيرة من الكلس والاملاح المعدنية واجسام أخرى غير عضوية وجدت ، بداهة ، بكميات وفيرة في مياه المحيط الاولى . تثبت التجربة انه تنتج تفاعلات متعددة ... يكفي في هذا المجال أن ندل على اتجاهها العام : تتحد جزيئات الكاربون البسيطة ومشتقاتها الاقل تعقيدا ، تتحد فيما بينها بأشكال مختلفة وتشكل جزيئات متزايدة التعقيد ... وهكذا مثلا اذا تركنا محلولا مائيا من الفورمالين وسيانور البوتاسيوم يستريح خلال مدة طويلة بما فيه الكفاية ، نلاحظ تشكل الجزيئات المعقدة التي تقارب بنيتها بنية الالبومين » .

«ففي اية نقطة من المحيط البدائي وفي اي جيب بحري وجب أن تتشكل هكذا هذه المواد العضوية المعقدة التي يمكن توليدها في المختبر بسهولة تامة . ان موادا عضوية متزايدة التعقيد كانت تظهر بفعل متبادل بين الماء ومشتقات الكاربون ، حتى تشكل الالبومين العنصر الاساسي للمادة الحية» .

« غير انه في المزيج البسيط لمحاليل من الالبومين مع محاليل مواد عضوية أخرى ، تتشكل مواد جيلاتينية نصف سيالة ، بشكل قطيرات تطفو على سطح الماء . في هذه القطيرات تتمركز الاجسام التي كانت توجد مسبقا في المحلول» .

« وهكذا لم تكن تكبر وحسب كمية المادة المنظمة على سطح الكرة الارضية ، بل كانت كيفية التنظيم تتحسن مع الزمن ... كانت تولد المادة الحية الاولية دون بنية خلوية » .

ويستمر أصحاب هذا الراي في شرح ما ارتأوه فقالوا :

«يمثل الاوكسجين قرابة ٧٠٪ من الوزن الاجمالي للجهاز العضوي الحي ، والكاربون ١٨٪ والهيدروجين ١٠و٥٪ . وهكذا فان الماء (اوكسجين وهيدروجين) والكاربون يشكلان لوحدهما ٩٨٪ من الوزن الاجمالي للاجهزة العضوية الحية » .

«يأتي بعدها الكالسيوم ، الآزوت ، البوتاسيوم ، والسليسيوم التي تمثل بضعة أعشار بالمائة ، ثم الفوسفور ، الماغنيزيوم الكبريت ، الكلور ، الصوديوم ، الالمنيوم والحديد التي تشترك في بناء المادة الحية بأجزاء مئوية من المائة » .

« ويشكل مجموع العناصر المعددة حتى الآن ٩٩و٩٩٪ من المادة الحية . وتلك هي العناصر الكبرى ... ويشكل المانغانيز ، البور ، التوتياء ، النحاس ، الفليور ، الليتيوم الباريوم ، النيكل ، اليود وغيرها من عناصر القلة التي تصادف في المادة الحية بنسب $\frac{١}{١٠٠٠}$ ، $\frac{١}{١٠٠٠}$ ، $\frac{١}{١٠٠٠}$ ٪ » .

«واخيرا تتركب الزمرة الثالثة والاخيرة من العناصر

١
المتطرفة التي تقل نسبتها في المادة الحية الى ما بعد ——— ٪ :
مليون
الزئبق ، الذهب ، الراديوم ، الخ » .

٣
« فالماء الذي يشكل ——— كتلة الاجهزة العضوية الحية
٤
يستخدم وسطا أساسيا للتبادلات الكيميائية الحياتية بين الكائنات الحية ووسطها »(١) .

هكذا تصور هؤلاء فرضية تشكل المادة الحية انطلاقا من المادة غير الحية !

فهل هذا الذي قالوه صحيح علميا ؟ وهل يمكن الرضوخ له والاقتناع به ؟

يقول الفيلسوف الماركسي روجيه غارودي تعليقا على هذه الفرضية :

«ان التحليل الكيفي والكمي للعناصر الكيميائية التي تتركب منها المادة الحية ما تزال أبعد من أن تستنفد تعريف الحياة ، فالحياة ليست مجموع خصائص الاجسام الكيميائية التي تشكل المادة الحية » .

ثم يضيف موضحا ذلك :

«التفاعلات التي تحدث في البروتوبلاسما ... بسيطة نسبيا : تأكسد ، انقاص ، تحليل مائي ، قطع الارتباط الكاربوني ، الخ . وكل واحدة منها يمكن توليدها خارج الجهاز العضوي وليس

(١) النظرية المادية في المعرفة : ١٢٨ ـ ١٣٣ .

لها اية صفة حيوية نوعيا ، وان الخاصة النوعية للمادة الحية هي تنظيم هذه التفاعلات في نظام وحيد »(١) .

واذن فالحياة شيء ، وهذه التفاصيل شيء آخر .

ومعنى ذلك باختصار : ان هذه الفرضية مجرد تصور او تخيل لم يقم دليل على صحته . بل ان تعريف الحياة ـ كما يعترف غارودي ـ مايزال أبعد مايكون عن هذه التحليلات او التخيلات .

هذا كله في جانب .

وفي جانب آخر لابد لنا من وقفة عند تلك القائمة من العناصر التي تشترك ـ بمجموعها ـ في بناء المادة الحية ، كما عددها البحث السالف الذكر : اوكسجين ، كاربون ، هيدروجين ، كالسيوم ، آزوت ، بوتاسيوم ، سيليسيوم ، فوسفور ، ماغنزيوم ، كبريت ، كلور ، صوديوم ، المنيوم ، حديد ، مانغانيز ، بور ، توتيا ، نحاس ، فليور ، ليتيوم ، باريوم ، نيكل ، يود ، زئبق ، ذهب ، راديوم .. الخ .

وعندما نقرأ هذه القائمة يحق لنا التساؤل :
كيف وجدت هذه العناصر ، كل عنصر منها على حدة ؟
وكيف اجتمعت هذه العناصر ـ وهي بالذات دون غيرها ـ لتكون المادة الحية ؟

وكيف أمكن ان يكون اجتماعها خاضعا لنسب معينة من كل عنصر ، بحيث كان بعضها قرابة ٧٠٪ وكان بعضها ١/مليون٪ ،

---

(١) المصدر السابق نفسه : ١٣٤ .

ومن وزن موازينها وقدر مقاديرها على هذا الشكل من الدقة والحساب ؟

هل حدث كل ذلك صدفة ؟

وان العلم يرفض الايمان بالصدفة واقامة النظريات على هذا الاساس .

وحتى لو تنزلنا فآمنا بالصدفة من حيث المبدأ فهل يمكن أن تتحقق الصدفة في كل ذلك وعلى كل المراحل لينتج منه شيء فيه حياة ؟

لنحاول ذلك :

ان البروتينات من المركبات الاساسية في جميع الخلايا الحية ، وهي تتكون من خمسة عناصر هي : الكاربون والهيدروجين والنتروجين والاوكسجين والكبريت . ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد ٤٠ الف ذرة . ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة قد تجاوز المائة ، وهي موزعة توزيعا عشوائيا ، فان احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزيئا واحدا من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزيء ، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد .

وقد قام العالم الرياضي السويسري «تشالزيوجين» بحساب هذه العوامل جميعا فوجد ان الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد الا بنسبة (١) الى رقم (١٠) مضروبا في نفسه (١٦٠) مرة ، وهو رقم لايمكن النطق به او التعبير عنه بكلمات . وينبغي أن تكون كمية

المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات، ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الارض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لاتحصى من السنين قدرها العالم السويسري المار الذكر بأنها (١٠) مضروبة في نفسها (٢٤٣) مرة من السنين ، أي أكثر من عمر الارض بأضعاف أضعاف المرات .

ومادمنا قد ذكرنا البروتين ـ على سبيل التمثيل ـ فمن الافضل أن نقرأ معا شرحا مختصرا يوضح لنا طبيعة البروتينات وكيفية صنعها في الجسم الحي لنزداد كفرا بالصدفة المزعومة .

يقول الدكتور حسن كامل عواض :

«بناء البروتينات يمثل ظاهرة من أهم الظواهر البيولوجية واكثرها تعقيدا ، كما انها اكثرها ارتباطا بالاساس العضوي للذات البيولوجية . وجزيء أي من البروتينات ان هو الا سلسلة طويلة تشبه العقد تتتابع خلالها الحبات ـ واحدة تلو اخرى ـ في نظام ثابت . وتعرف هذه الحبات بالاحماض الامينية وهي عشرون نوعا يمكن ان يرمز اليها بالرموز ح١ ، ح٢ ... الى ... ح٢٠ . وقد يحتوي جزيء البروتين الواحد على عدد محدود من هذه الوحدات العشرين او قد يحتوي عليها كلها . ولكن الذي يعطي البروتين مميزاته وخصائصه ويحدد ذاته هو النمط الذي تتتابع فيه الوحدات ح١ ، ح٢ ... الخ . فالبروتين الذي تتابعه ح١ ، ح٢ ، ح٣ ، ح٤ ، يختلف تماما عن الذي تتابعه ح١، ح٣، ح٢ ، ح٤ ، أو ح١ ، ح٥ ، ح٢ ، ح٣ فنظام تتابع الاحماض الامينية نظام صارم كل الصرامة فقد يسبب اختلاف واحد في موضع معين من التتابع تغيرا جوهريا في جزيء البروتين يفقده ذاتيته ويكسبه خصائص مغايرة للجزيء الاصلي» . .

و «ان القليل من التأمل في داخل الخلية الحية سيصدمنا بوجود حشد ضخم من المركبات والجزيئات ، فالخلية التي قطرها اقل من جزء واحد من مائة جزء من المليمتر تحتوي في المتوسط على عشرة آلاف صنف مختلف من البروتينات عدا العدد الهائل من الاحماض النووية والجزيئات والجسيمات المتفاوتة الحجم والمتنوعة الخصائص »(١) .

ومع ذلك كله ، فان البروتينات ليست في واقعها سوى مواد كيماوية عديمة الحياة ، ولن تكون حية الا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا نعلم كنهه ابدا .

وهكذا يتضح ان فرضية هؤلاء الماديين في انطلاقة الحياة الاولى على سطح هذه الكرة لا يمكن الاقرار بها بل ولا السكوت عليها ، لانها فرضية مجردة عن الدليل ، ان لم نقل بأن الدليل قائم على عكسها بشكل مقنع ومطمئن للفكر الحائر الباحث عن الحقيقة .

ولابد ـ اذن ـ من الايمان بتلك القوة التي اطلقت الشرارة الاولى للحياة في الارض فكانت الحياة .

يقول الدكتور البرت ماكومب ونشستر الاخصائي في علم الاحياء :

«ان دراسة التكاثر في الاحياء تعتبر أروع دراسات علم الاحياء وأكثرها اظهارا لقدرة الله . ان الخلية التناسلية التي ينتج عنها النبات الجديد تبلغ من الصغر درجة كبرى بحيث تصعب مشاهدتها الا باستخدام المجهر المكبر . ومن العجيب

---

(١) شفرة الحياة : ٦١ ـ ٦٣ و٧٠ ـ ٧١ .

ان كل صفة من صفات النبات : كل عرق ، وكل شعيرة ، وكل فرع على ساق ، وكل جذر او ورقة يتم تكوينها تحت أشراف مهندسين قد بلغوا من دقة الحجم مبلغا كبيرا فاستطاعوا العيش داخل الخلية التي ينشأ عنها النبات ، تلك الفئة من المهندسين هي فئة الكروموسومات » .

« ولهؤلاء المهندسين ذوي الاحجام الضئيلة القدرة على تعديل خواص النباتات التي تنتجها هذه الخلايا الدقيقة في فترات نادرة من الزمان ، فهي بذلك تنتج كائنات اكثر قدرة على التلاؤم من أسلافها . لقد مرت بالبشر فترة كان اغلب الناس يعتقدون فيها انه من الكفر ان يعتقد المرء ان الكائنات الحية التي تعيش اليوم على سطح الارض كانت في يوم من الايام على صورة تخالف الصورة التي خلقها الله عليها باديء الامر . اما في الوقت الحاضر فان معظم المفكرين يرون ان خلق كائنات لها القدرة على التكاثر وعلى تغيير اشكالها وتركيبها ، تبعا للظروف التي تحيط بها ، يعد أشد دلالة على قدرة الله من خلق كا ئنات لا تتطور ولا تستطيع الا ان تنتج صورا مكررة من انفسها طيلة الزمان » .

«ويقف العلماء اليوم على عتبة كشف جديد بالغ الاهمية ، الا وهو خلق الحياة داخل المعمل وفي أنابيب الاختبار ، وقد أمكن فعلا الوصول الى خلق صورة من صور الحياة داخل المعمل ، ولكنها صورة بدائية على درجة كبيرة من البساطة والنقص ، وقد تم ذلك بمزج بعض المواد الكيماوية بنسب معينة لكي تتكون منها مادة تسمى ديسوكسي ريبونيوكليك (DNA) ، وهي من المواد التي لم يكن من الممكن انتاجها من قبل الا داخل الخلايا الحية . انها مادة الحياة ، مادة الوراثة التي تحمل الصفات الوراثية عبر الاجيال وتضع طابعها على جميع الاحياء التي تدخل في تركيبها » .

«وقد أمكن أخذ هذه المادة من بروتوبلازم بعض الخلايا الحية وادخالها في بروتوبلازم بعض الانواع الاخرى ، فادى ذلك الى جانب من التغير في الصفات الوراثية للانواع المطعمة بهذه المادة » .

ثم يعلق هذا العالم قائلا :

«ونحن لا نعلم ماذا يكون شأن ذلك الحمض الصناعي الذي حضره الانسان في المعمل وكيف يكون تأثيره عندما يطعم به بروتوبلازم الخلايا ا لحية ، هل تمتصه الخلايا ، وهل يتسق مع تركيبها ، وهل تحدث فيها نفس التأثيرات التي تحدثها المادة العضوية الطبيعية ؟ اننا لا نعرف الاجابة حتى اليوم عن هذه الاسئلة ولايزال مستقبل الجهود التي تبذل في هذا الميدان في كف القدر ، فبعض العلماء يتشككون في امكان الوصول الى خلق الحياة والبعض الآخر يعدونه من الامور المستحيلة ، ولكن حتى اذا نجحت هذ ه الجهود ، فهل يزعزع ذلك من ايماننا بالله ؟ انه لا يزعزع الا ايمان اولئك الذين لديهم ايمان سطحي . أما من يقوم ايمانهم على أساس التفكير العميق ، فان ذلك لايعد أكثر من خطوة جديدة في ادراك ما أبدعه الخالق الاعظم الذي خلق وحده تلك الروائع التي يعمل الناس جاهدين متكاتفين في الكشف عنها »(١) أي ان نجاح العملية ـ لو تم ـ فسوف لن يدل على شيء سوى تقليد «الخلق» الالهي الاول ومحاكاته ، كما قلد العلم ذلك «الخلق» الاول أيضا فيما صنع حتى الآن من كلى وأسنان .

ويتحدث الدكتور كريسون عن نشأة الحياة على الارض

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم : ١٠٦ ـ ١٠٧ .

فيقـــول :

«ان لغز ظهـور الحياة على الارض قد يحل وقـد لايحـل بحدوثه الذاتي . وقد افترض البعض ان الحيـاة قد جاءت من بعض الكواكب في شكل جرثومـة انسـلت دون أن يصيبهـا تلف ، وبعـد أن بقيت زمانـا غير محـدود في الفضـاء ، استقرت على الارض ، ولكن كان من العسير على تلـك الجرثومـة أن تبقى حيـة في درجـة حرارة الصفر المطلـق في الفضـاء ، واذا استطاعت البقـاء رغم ذلك فـان الاشـعاع الكثيف للموجـة القصيرة كان يقتلهـا . فان كانت قـد بقيت حيـة رغـم ذلك فلا بد انها وجدت لنفســها المكان الملائم ، وربما كان المحيـــط ، حيث أدى اتفاق مدهش في الظـروف الى توالدهـا وبـدايـة الحياة على الارض » .

ثم يتساءل الدكتور كريسون فيقـول :

«وكيف بدأت الحياة على أي كوكب مـن الكواكـب » ؟

ويجيب على ذلك :

«ان المتفق عليه عموما هو انـه لا البيئـةو حـدها ، ولا المادة مهمـا كانت موائمـة للحياة ، ولا أي اتفـاق في الظـروف الكيمويـة والطبيعية قد تخلقه المصادفة ، يمكنها أن تأتي بالحياة الى الوجـود » .

«وبصرف النظـر عن مسألـة أصل الحياة التي هي بالطبع من الالغاز العلميـة ، قد افترض ان هنـة ضئيلـة من الحياة ، بلغت من الضآلة انهـا لا ترى أو تلمح بالميكروسكـوب ، قد أضافت اليها ذرات ، وقبلت توازنهـا الوثيق ، فانقسمت ، وكررت الاجزاء المنفصلة هـذه الدورة ، وبذا اتخذت أشكال الحياة .

ولكن لم يزعم احد انها اتخذت الحياة نفسها » .

ويضيف الدكتور كريسون موضحا مقصوده فيقول :

«ان الاميبا هي مخلوق ميكروسكوبي حي على درجة كبيرة من التطور ، وهو مكون من ملايين لا حصر لها من الذرات في تنظيم مرتب . والاميبات هي مخلوقات ذوات خلية واحدة ، قد لا يزيد قطرها على جزء من مائة من البوصة ، وتوجد في جميع مياه العالم . والاميبا تشعر بالجوع ، وتبحث عن غذائها عن قصد وعمد . وأية درجة من كبر الحجم يجب ان يبلغها الحيوان حتى نعترف بأن له رغبات وعزيمة ؟ ولكن الحجم هو لا شيء في حسبان اللانهائية ، لان الذرة لا تقل كمالا عن نظام المجموعة الشمسية . واذا اتخذنا الاميبا مثلا للايضاح ـ دون أن نزعم ان هذا المخلوق الحي ذا الخلية الواحدة هو المنبع الاصلي للحياة ـ فانه يمكن القول بأن مخلوقا ما نطفيا (بروتوبلازميا) حيا ، بعد ان ضاعف تكوينه الداخلي ، قد انقسم وصار اثنين ، ثم انقسم الاثنان وصارا اربعة ، وهكذا الى غير حد ، كما تفعل الخلايا الآن في كل مخلوق حي . فكل خلية تحتوي في نفسها ، في تقسيمها الباكر ، القدرة على انتاج فرد كامل . والخلايا نفسها باقية الا اذا وقع لها حادث أو صادفها تغير في الظروف لا قبل لها به . وهي تكون الخلايا البسيطة في جميع المخلوقات من حيوانات أو نباتات في الوقت الحاضر ، وبذا تكون صورا طبق الاصل من أسلافها ، ونحن بوصفنا كائنات بشرية ، امما منتظمة من بلايين فوق بلايين من أمثال تلك الخلايا ، وكل خلية هي مواطن يؤدي نصيبه الكامل من الخدمة الخالصة في ذكاء . وهذا يختلف اختلافا بينا عن الجزيئة المادية العاطلة من الحياة » .

«ولكن في الاستطاعة ان نشير الى شيء حدث منذ زمن بعيد ، عند بدء الحياة على الارض ، وكان له شأن عظيم ،

ذلك ان خليـة واحدة قد نمت عندهـا القـدرة المدهشة على
استخدام ضوء الشمس في حـل مركـب كيموي ، واصطنـا
غذاء لهـا ولاخواتهـا من الخلايـا . ولابد ان لذات اخريات لخل
أصيلة أخرى قد عاشت على الغـذاء الذي أنتجته الخلية الاولى
وأصبحت حبوانـا . في حين صـارت الخليـة الاولى نباتـا
والنباتات التـي هي نسـل هـذه الخليـة هي التي تغذي جمي
الكائنات الحية الآن ، فهـل يمكننا ان نعتقد ان كـون خليـ
قد أصبحت حيوانا واخرى قـد أصبحت نباتـا ، انما حـد
بطريق المصادفـة ؟ ان التوازن العجيب بيـن الزرع وحيـ
الحيوان انمـا استقـر بهـذا التقسيم . واذا عدنا الى قصة ثا
اوكسيد الكاربـون ، وجدنا ان هذا التقسيم هو أساسي اطلاق
بوصفه احدى ضروريات الحياة نفسها . ولو كانت الحياة كله
حيوانية ، لكانت الآن قد استنفدت الاوكسجين . ولو كان
الحياة كلهـا نباتية ، لكانت قـد استهلكت كـل ثاني اوكسيـ
الكاربون . وفي كلتا الحالتين كانت تنتهي هذه الحياة أو تلك ».

«ومن المفروض انـه في التـاريخ المبكـر جـدا للكـ
الارضية لم يكـن بالهواء اوكسجين مطلق ، اذ كان كـل الاوكسج
مخزونا في قشرة الارض وفي المـاء وثاني اوكسيـد الكاربون
فاذا كان الامـر كذلك فان كل الاوكسجين الذي لدينـا الآ
قـد جاء من الزرع . وقـد ثبت ذلك بشكـل مقبـول ، ا
النباتات تستعمل ثاني أوكسيد الكاربون وتطلق الاوكسجين

ولكـن اذا كان هذا كلـه صحيحـا فـان الحيوانات التي
غنى لهـا عن الاوكسجين لكي تعيش ، لابـد قـد جاءت الـ
الوجـود بعد زمـن طويل من تطـور النباتات في البحر والارض
فهل كان ظهـور الحيـاة على دفعتين ؟ سنتـرك ذلك للمستق
ليقـرره » .

« ومن عجب انه في كلتا الحالتين الحيوانية والنباتية ،
ذ ظهور الكائنات البروتوبلازمية الاولى قد تطور الذكر
الانثى بشكل جعل كل نوع يستمر بالاتحاد المتكرر مع
حتفاظ بمميزاته العامة »(١) .

واذن . فليست المسألة مسألة «صدفة» أو «ضرورة»
يؤيدها برهان ، وانما جاءت البراهين كلها تؤكد عدم قبولها
دم امكان بناء الصرح الفلسفي العظيم للصورة الكونية في
ساس على مثل هذه الافكار أو التخيلات التي قام البرهان
ى فشلها وتراجعها أمام المنطق العلمي الدقيق والمنهج العقلي
صارم في دراسة تاريخ الكون .

ومع ثبوت فساد كل هذه التصورات ، وبعد ثبوت ان
ادة مخلوقة وان حركتها الجوهرية مخلوقة معها ، وان خالق
ادة وباعث الحركة فيها ومنشيء الخلية الحية الاولى هو شيء
ق المادة وما وراء المادة فهل يبقى شك في تقدم وجود ما
مي في كتابات الماديين بـ «الروح» على الطبيعة ؟

لقد اتضح كل الوضوح خطأ ما ذهب اليه غارودي في
عريف المادة اذ قال ما لفظه :

«هي الواقع الموضوعي ، المستقل عن الروح ، والتي لا
تاج الى روح لكي توجد »(٢) .

بل ثبت ان الطبيعة ، المادة ، بحاجة تامة الى الروح ـ اي

) العلم يدعو الى الايمان : ٩٦ ـ ١٠١ .
) النظرية المادية في المعرفة : ٢٣ .

السبب غير المادي ــ «لكي توجد» كما سلفت تفاصيله وانهـ
لم يكونوا مثاليين بل واقعيين جدا اولئك «الذين اعتبرو
أن الفكر أو الروح هو الاسبق ، وهم يؤكدون أن الرو
والوعي كانا موجودين قبل الطبيعة وغير مرتبطين بها»(١) .

وبذلك تبخرت مدعيات «البرهنة على ان المادة هي
الواقع الاول وان الروح هي المعطى الثاني »(٢) بعد أ
تجلت البرهنة على وجود علة العلل وسبب الاسباب الذي
خلق المادة ، الطبيعة ، وأطلق حركتها ، وأودع فيها حاجاته
ووسائل نموها وتطورها على مر القرون معدودة بالملايين .

ومن هنا ظهر انه على وهم كبير ذلك الذي « يعتبر ا
المادة هي الاولى والاصل ، وانها تولد الروح »(٣) ، كما ظهـ
انه ليس من المثالية في شيء من ذهب الى ان « الروح أساس
كل وجود»(٣) ، بل ذلك هو الواقع الذي ليس من واقـ
غيره .

وبعد :

فماذا كانت خلاصة هذه الجولة الثانية ؟ وماهي نتيجة هذه الخطوات المتلاحقة ؟

لقد قالوا : ان المادة أزلية !

وقد ثبت انه « افتراض » لم يستطيعوا البرهان عليه بل ان البرهان على خلافه .

---

(١) المادية الدياليكتيكية : ٣ .
(٢) النظرية المادية في المعرفة : ٣٠ .
(٣) اسس المادية : ١٠ .

لقد قالوا : ان الحركـة ذاتيـة !

وقد ثبت فساد هذا الزعم بما لا مزيد عليه .

لقد قالوا : ان الحركة هي سبب كل شيء !

وقد ثبت ان المـادة فيهـا امكـان الحركـة الذي يحتاج الى ن ينقلـه الى مقـام الفعـل والوقوع .

لقد قالوا : ان الحركة هي مصـدر وجـود الخليـة الحية لاولـى !

وقد ثبت ان الخلية الحية الاولى بحاجة الى موجـد غير حركـة يطلق فيهـا شرارة الحياة .

وقالـوا ...... وقالـوا ..

ولم يستطيعوا اثبات أي من تلك الاقـوال بالدليل الفلسفي معقـول والبرهـان العلمي المقبـول .

(ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شـــيء ، اعبدوه) (الله الذي خلق السماوات والارض ، وأنـزل مـن سماء مـاء فأخرج به من الثمرات رزقـا لكم ، وسخر لكـم فلك لتجـري في البحـر بأمـره ، وسخر لكم الانهـار ، وسخـر كم الشمس والقمـر دائبيـن ، وسخـر لكـم الليـل والنهار ، آتاكـم من كـل ما سألتمـوه) (الا له الخلق والامـر ، تبارك له رب العالمـين) .

مـراجع الكتـاب

الاسفار الاربعة /صدرالدين الشيرازي طهران ١٣٨٣ هـ

الله /عباس محمود العقاد القاهرة ١٩٦٤ م

الله /د. مصطفى محمود بيروت ١٩٧٢ م

الله يتجلى في عصر العلم /ترجمـــة
د. الدمرداش عبدالمجيد سرحان القاهرة ١٩٦٨ م

اسس المادية الديالكتيكيـــة /سبيركين
وياخوت موسكو (دار التقدم)

الانسان في فجر حياته/دوروثي ديفدسن/
ترجمـــة طه باقـــر بغداد ١٩٤٥ م

البحار/محمد باقر المجلسي «الجزء ٥٧» طهران ١٣٨٥ هـ

الزمان والازل/ولترستيس ، ترجمـــة
د. زكريا ابراهيم بيروت ١٩٦٧ م

شفرة الحياة/د. حسن كامل عواض القاهرة ١٩٦٨ م

الشواهد الربوبية /صدرالدين الشيرازي — ايران ١٣٨٦ هـ

العلم يدعو الى الايمان / د. كريسون — القاهرة ١٩٦٥ م

قصة الانسان/د. جورج حنا — بيروت ١٩٥٩ م

المادية الديالكتيكية/ جماعة من الكتاب السوفييت — دمشق (دار الجماهير)

المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية /ستالين — دمشق (دار دمشق)

المظاهر الالهية /صدر الدين الشيرازي — ايران ١٣٨٠ هـ

الناس والعلم والمجتمع /فريق من الكتاب السوفييت — موسكو (دار التقدم)

النظرية المادية في المعرفة / روجيه غارودي — دمشق (دار دمشق)

نظرية الحركة الجوهرية / هادي العلوي — بغداد ١٩٧١ م

نقد الفكر الديني / د. صادق العظم — بيروت ١٩٧٠ م

نقد الفهم العصري للقرآن / د. عاطف احمد — بيروت ١٩٧٢ م

فهرســت مطالب الكتــاب

جـدول الخطأ والصواب

وقعت بعض الاخطاء أثناء الطبع وهي كما مبيـن ادنـاه ٠

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٦	٧	علم	عالم
٧١	السطر الثالث يكون السطـر الاول وبالعكس ٠		
٩٦	١١	والعلية	العلية